جامعة الأزهر
حولية كلية الدراسات الإسلامية
والعربية للبنين بالشرقية

الاقتباس القرآني

في ملحمتي الشاعر
إسماعيل صبري أبو أميمة
النونية الكبرى والهمزية الكبرى (دراسة بلاغية)

إعداد

الدكتور/ حسن محمد الشريف
مدرس البلاغة والنقد
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنين بالدقهلية شرقية

العدد الثالث
للعام ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٦م

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام علي خير خلق الله سيدنا محمد وعلي آله وصحبه ، وارض اللهم عن سادتنا آل بيت رسول الله - صلي الله عليه وسلم – وبعـــــــــــــد ،

فإن الأدبَ العربي-شعرَه ونثرَه- كان ولا يزال مصدرا خِصْباً ، ومعينا لا ينضب ، ومنهلا عذبا للدراسة والبحث .

وباطلاعي على ديوان الشاعر إسماعيل صبري أبو أميمة وجدتُه جديرا بالعناية و الاهتمام : فهو شاعر فصيحٌ مجيدٌ يمتلك موهبة فذة و ذكاء وقَاداً ، وحافظة واعية ، واطلاعا واسعا ، وإلماما بدقائق اللغة ومفرداتها .

و فوق ذلك كله فهو شاعر أصيلُ الطبع يتمتع بعاطفة دينية أصيلة، بدت واضحة جلية في ملحمتيه النونية الكبرى والتي بلغ عدد أبياتها تسعمائة وأربعة وخمسين بيتا ، و الهمزية الكبرى والتي بلغ عدد أبياتها خمسمائة وتسعة وستين بيتا .

استعرض الشاعر فيهما أحوال البشرية وتاريخها وأخبارها.

والملحمة الأولى النونية الكبرى من بحر الخفيف مطلعها:

ربِّ هبْ لِي هُدًى وأطلِقْ لِسَانِي وَأنِرْ خَاطِرِي وثبِّتْ جَنَانِي

بدأها الشاعر بنظم أسماء الله الحسنى،ثم تحدث عن البعث والنشور و القيامة وأهوالها، وما ينتظر الإنسان من جنة أو نار، ثم تحدث عن مخلوقات الله المتنوعة ، ومنها تطرق إلى الإسلام وتاريخه.

وسار على النهج نفسه في ملحمته الثانية الهمزية الكبرى وهى كذلك من بحر الخفيف .

ومطلعها:

أيُّهَا النَّاس أنْتُمُ الفُقَرَاءُ فادْكُرُوا مَنْ لَهُ الْغِنَى والبَقَاءُ

ولعل أهم ما يميز هاتين الملحمتين الصبغة الدينية والعاطفة الإسلامية الجيَّاشة والتي تمتع بها شاعرُنا ، والمتمثِّلة في كثرة تضمينه ، واقتباسه من القرآن الكريم : ألفاظا وجملا وعباراتٍ و تراكيبَ ، بل وآياتٍ جعلت لشعره طابعا إسلاميا ، وكشفت عن تمكنه من تراثه الديني والأدبي ، و مهارتِه في إحكام الصلة ، و براعتِه في توظيفِ و دمج بيان القرآن في لغته الشعرية ؛ ليزيدَ المعاني عمقا والبيانَ سحرا، فكان موضوع هذا البحث : (الاقتباس القرآني في ملحمتي الشاعر إسماعيل صبري أبو أميمة : النونية الكبرى ، و الهمزية الكبرى دراسة بلاغية)

وقد اقتضت خطة الدراسة أن تكون في أربعة مباحث يسبقها تمهيد تناولت فيه التعريف بالشاعر إسماعيل صبري أبو أميمة ونبذة عن

الاقتباس و أقسامه وحكمه وموقعه البلاغي .

وجعلت **المبحث الأول**: مقام تمجيد الله - جلّ وعلا- والثناء عليه ،

والمبحث الثاني : مقام التذكير ببعض مظاهر قدرة الله تعالى ،

والمبحث الثالث : النصح والإرشاد ،

والمبحث الرابع مقام أهوال يوم القيامة ،

ثم خاتمة وثبت للمراجع .

وبعد ،

فالشكر موصول لكل من قدم لي المساعدة في إنجاز هذا البحث المتواضع راجيا من الله - تعالى - أن يحقق الهدف المنشود منه ، وحسبي أنني حاولت واجتهدت ، والكمال لله وحده ،

واللهَ اسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، إنَّه ولي ذلك والقادر عليه .

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطانا ، والحمد لله أولا و آخرا ،،،

د حسن الشريف

التمهيـــــــــــــــــد

أولا : التعريف بالشاعر إسماعيل صبري أبو أميمة : (١) .

هو شاعر مصري من مواليد عام ١٨٨٦م ، لقب (بأبي أميمه) ، وعُرف أيضًا باسم «إسماعيل صبري الصغير» أو(إسماعيل صبري أفندي) للتمييز بينه وبين معاصره الشاعر «إسماعيل صبري باشا»

لم تمكنه ظروفه من إتمام تعليمه العالي ، فاكتفى بالمرحلة الثانوية ، عمل بالتعليم لسنوات طوال إلى أن كف بصره فترك الخدمة آسفا ، و توفي عام ١٩٥٣م .

و شاعرنا فنان وهبته الطبيعة حظاً كبيراً من المقدرة الفنية في ضروبٍ عديدةٍ : فهو يحسنُ الخط العربي إلى درجة الإتقان ، كما كان يجيد فن الرسم إلى مرتبةٍ جعلته يختص بتدريس مادة الرسم في مدارس الوزارة ، وفوق ذلك فهو شاعر قوى الديباجة ، سليم اللغة ، جياشا بنوازع النفس ، حتى إن شعره ليختار منه المقطوعات المناسبة يلحنها الملحنون ويغنيها المغنون من أبناء جيله فيكسبونها بأصواتهم نغما يصل إلى القلوب ويشنف الآذان.

وقد كان هذا هو الباب الذي نفذ منه الشاعر إلى مجتمعه .

ألف روايات كثيرة تعالج مشاكل المجتمع كروايتي : (الشبح ، وبدر البدور) وغيرها ،كما قام بترجمة بعض الروايات الأجنبية وهيأها للمسرح العربي .

---

١) ينظر ديوان إسماعيل صبري أبو أميمه محمد القصاص ، عامر محمد بحيرى ،أحمد كمال زكى دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان : ٥ وما بعدها

يتمتع الشاعر بنفس طيبة كريمة وروح مرحة منبسطة ، يسلم أمره للمقادير ، راض بما قسم الله له .

أعماله :

كتب «إسماعيل صبري» مجموعة كبيرة من الأشعار ،كما كتب مجموعة من المسرحيات الشعبية ، صدر له ديوان شعر عنيت بنشره إدارة إحياء التراث التابعة لوزارة الثقافة المصرية، وعهدت إلى ثلاثة من الأساتذة: ـ هم الشاعر عامر محمد بجيري ، والدكتور محمد القصّاص، والدكتور أحمد كمال زكي ـ بجمع تراث هذا الشاعر المغمور، ثم أخرجته في ديوان كبير بتقديم وافٍ، كتبه الشاعر عامر بجيري

رحم الله الشاعر رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته ،،،

ثانيا : الاقتباس و أقسامه وحكمه وموقعه البلاغي :

الاقتباس : لونٌ بديعيٌ جميل ، يزدانُ به الكلام ، ويُكْسِبه رونقاً وجمالاً ؛ ذلك لكونه وثيقَ الصلةِ بالقرآن الكريم وبالحديثِ النبوي الشريف ؛ ولذا تتفاوت فيه أساليبُ البلغاءِ من الشعراء والكتاب حتى ذهبوا فيه مذاهبَ شتى من التفنن والإبداع ، كاشفين عن مهاراتهم في إحكام الصلة بين كلامهم وما اقتبسوه ، حتى غدا فناً جميلاً ، وأسلوباً عالياً وعادةً متبعةً تُكْسِب كلامَهم لبوساً من الهيبةِ والجلال ، وتُصبغه بصبغة الحكمة والبهاء.

وهو كغيره من الألوان البديعية لا يقصد به تحسين الكلام فحسب ، و إنما هو فنٌ وثيقُ الصلة ببلاغة الكلام ، يقوي به المتكلّم كلامه، ويُحْكِمُ به نظامه، وفاء بالمعنى واستجابة لمقتضى الأحوال .

وأصله طلب القبس وهو الشعلة من النار يقال : قبس واقتبس ، ومن ذلك قولُه تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ (١) .

(أي آتيكم بشعلة نار مقبوسة أي مأخوذة من أصلها) (٢) .

و الاقْتِباسُ عند البلاغيين هو أن يضمن الكلامُ شَيْئاً مِنَ الْقُرآن الكريم أو الحديثِ الشريفِ لا على أنه منه)(٣) .

كما يطلق على استفادة العلم و الهداية على سبيل الاستعارة ومنه انظرونا نقتبس) (٤) .

---

١) النمل : ٧

٢)فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير محمد بن علي بن محمد الشوكاني دار الفكر – بيروت : ٤ / ١٢٦

٣)الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع الخطيب القزويني دار الكتب العلمية بيروت لبنان : ٤٢٦

٤) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية ، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي تحقيق: عدنان درويش ـ محمد المصري مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة الثانية ١٤١٩هـ ١٩٩٨م : ١٥٦

التوقيف على مهمات التعاريف محمد عبد الرءوف المناوي دار الفكر المعاصر ، دار الفكر بيروت ، دمشق الطبعة الأولى ، ١٤١٠ تحقيق : د. محمد رضوان الداية : ٨١

والآية المذكورة قوله تعالى {يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ } [الحديد: ١٣]

(وسمى الإتيان بالقرآن أو الحديث على الوجه المذكور اقتباسا أخذا من اقتباس نور الصباح من نور القبس وهو الشهاب؛ لأن القرآن والحديث أصل الأنوار العلمية)[1] .

فالمتكلم يأخذ من القرآن الكريم أو الحديث الشريف في كلامه ما هو بمنزلة جذوة نار يستضيء به على أن لا يكون في كلامه ما يشعر بكون المقتبَس من القرآن أو الحديث الشريف ، كأن يقول : قال الله كذا ، أو قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كذا ، ولهذا يحسن أن يمهد للمقتبَس بحيث يكون مندمِجا في الكلام اندماجا تاما ، حتى يصير من كلام المقتبس نفسه [2] .

أقسام الاقتباس :

قسم البلاغيون الاقتباس من حيث نقل المقتبس عن معناه الأصلي وعدم نقله إلى قسمين :

الأول : ما لم ينقل فيه اللفظ المقتبس عن معناه الأصلي إلى معنى آخر وذلك كقول الحريري : (فلم يكنْ إلاّ كلمح البصر، أو هو أقربُ،حتى أنشدَ فأغربَ) [3] .

والثاني : ما نقل فيه المقتبس عن معناه الأصلي

---

١) مواهب الفتاح: ٤/ ٥١٠

٢) الاقتباس أنواعه وأحكامه دراسة شرعية بلاغية في الاقتباس من القرآن والحديث عبد المحسن عبد العزيز العسكر مكتبة دار المنهاج الرياض الطبعة الأولى :١٣

٣) ينظر الإيضاح في علوم البلاغة : ٤٢٩

ما جاء في قول ابن الرومي

لَئِنْ أَخْطَأْتُ فِي مَدْحِكَ مَا أَخْطَأْتَ فِي مَنْعِي

لَقَدْ أَنْزَلْتُ حَاجَاتِي "بوَادٍ غَيْر ذِي زَرْع"

فقوله بواد غير ذي زرع مقتبس من قوله تعالى:﴿ رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ ﴾[1] ومعناه في القرآن على ظاهره وهو واد لا ماء فيه ولا نبات وهو شعب مكة المشرفة ، وقد نقله الشاعر إلى جناب لا خير فيه ولا نفع على سبيل التجوز)[2] .

هذا وقد أورد الإمام السيوطي أن الاقتباس ينقسم باعتبار قبوله من عدمه إلى ثلاثة أقسام مقبول ومباح ومردود :

فالأول : ما كان في الخطب والمواعظ والعهود .

والثاني : ما كان في القول والرسائل والقصص .

والثالث : على ضربين أحدهما ما نسبه الله إلى نفسه ونعوذ بالله ممن ينقله إلى نفسه كما قيل عن أحد بني مروان أنه وقع على مطالعة فيها

---

١) إبراهيم: ٣٧

٢) مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح ابن يعقوب المغربي مطبوع ضمن شروح التلخيص ، دار السرور بيروت لبنان :٥١٣

شكاية عماله :(إنَّ إلَيْنَا إيَابَهُمْ ثُمَّ إنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ) والآخر تضمين آية في معنى هزل ونعوذ بالله من ذلك[1] .

هذا والتغيير اليسير في اللفظ المقتبس لا يخرجه عن كونه اقتباسا كما في قول بعض المغاربة عند وفاة بعض أصحابه :

قد كانَ ما خِفْتُ أنْ يَكونَا إنَّا إلى الله راجِعُونَا [2].

هذا وقد اشتقّ البلاغيّون من الاقتباس أربعة فروع وهي:

التضمين و الْعَقْد و الْحَلُّ و التلميح.

-فالتضمين" هو أن يُضْمِّنُ الشاعر شعرَه شيئاً مِنْ شعْر غَيْره، مع التنبيه عليه إنْ لم يكن مشهوراً عند الْبُلَغاء، ودون التنبيه عليه إنْ كان مشهوراً.

-والعقد": هو أن ينظم الشاعر نثراً لغيره لا على طريقة الاقتباس.

-والحلّ": هو أن يَنْثُر الكاتب أو المتكلّم شِعْراً لِغَيرِهِ،

-والتلميح": هو أن يُشِيرُ الناثر أو الشاعر إلى قصة أو شعْرٍ أو نثرٍ ذكر ما أشار إليّه. [3]

---

١) الإتقان في علوم القرآن جلال الدين عبد الرحمن السيوطي تحقيق سعيد المندوب دار الفكر لبنان الطبعة : الأولى ١٤١٦هـ ١٩٩٦م : ١ / ٢٩٧
٢) الإيضاح في علوم البلاغة : ٣٨٣
٣) ينظر شروح التلخيص ، دار السرور ، بيروت ، لبنان : ٤ / ٥١٤ وما بعدها

حكم الاقتباس :

أما حكم الاقتباس من الناحية الشرعية فالذي عليه جمهور العلماء من الحنفية والمالكية والحنابلة والشافعية جواز الاقتباس من القرآن في النثر ومجيء الاقتباس القرآني في السنة النبوية دليل على إباحته فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال يوم خيبر : (اللهُ أَكْبَرُ خَرِبَتْ خَيْبَرُ إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ{فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ}قَالَهَا ثَلاثًا [1] .

ومما استدل به على الجواز أيضا ثبوت الاقتباس بالأسانيد الصحيحة عن كبار الصحابة كأبي بكر وعثمان وعلى وابن مسعود ومعاذ بن جبل رضي الله عنهم أجمعين وثبوته كذلك عن التابعين ومن بعدهم الأئمة الأعلام ومشاهير الإسلام كالإمام مالك والشافعي وأبى حامد الغزالي وابن تيمية وابن القيم فإنهم قد اقتبسوا من القرآن ولم يروا به بأسا ولم ينكروه وإذا جاز الاقتباس من القرآن في النثر فمن الحديث النبوي من باب أولى أما الاقتباس في الشعر : فالذي عليه أكثر العلماء الجواز) [2] .

---

١) صحيح البخاري الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه دار ابن كثير ، اليمامة - بيروت - ١٤٠٧ - ١٩٨٧، الطبعة: الثالثة، تحقيق: د مصطفى ديب البغا بَاب مَا يُحْقَنُ بِالأَذَانِ مِنْ الدِّمَاءِ : ١/ ٢٢١

٢) ينظر الاقتباس أنواعه وأحكامه : ٦٢

المبحث الأول

تمجيد الله - جلّ وعلا- والثناء عليه :

اللهُ - تَعَالَى - هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْحَمْدِ الثَّنَاءِ ، وقد أثنى على ذاته المقدسة بما هو أهله مِنْ خِصَالِ الجلال والعظمة والكبرياء ، وعلم عباده كيف يثنون عليه ، ويحمدونه ، وقد سار الشاعر على نهج القرآن الكريم في الثناء على الذات العلية ، متأثرا بلغته ومقتبسا منه فقد استهل نونيته الكبرى بقوله :[1]

ربِّ هبْ لِي هُدًى وأطلِقْ لِسَانِي وَأَنِرْ خَاطِرِي وثَبِّتْ جَنَاني [2]

فالشاعر يضرع إلى ربه طالبا الهداية ، وطلاقة اللسان ، وإنارة الخاطر ، وتثبيت الجنان ، وهى دعوات مناسبة لمقام البدء والاستهلال لاسيما طلاقة اللسان .

وشاعرنا متأثر بالقرآن وبلغته يستحضر من كلماته وجمله وأساليبه ما يناسب موقفه ، وقد أفاض على دعواته من قدسية القرآن وجلال كلماته:

---

١) ديوان إسماعيل صبري أبو أميمه: ٢٧

٢) رجل طَلْقُ اللسان وطَلْقٌ وطُلَقٌ وطَلِيق: فصيح و الخاطر : الهاجس والجمع الخواطر ، و الجَنَانُ : الأمر الخفي ، و ثَبْتُ الجَنَان : ماضٍ في الأمْر والحَرْبِ. و (ثَبْتُ) الجنان أي (ثابتُ القَلْبِ)ينظر لسان العرب ابن منظور دار صادر بيروت الطبعة الأولى طَلَقَ ، خَطَرَ ،جَنَّ ،والمحيط في اللغة الصاحب بن عباد عالم الكتب - بيروت / لبنان - ١٤١٤هـ -١٩٩٤م الطبعة : الأولى الشيخ محمد حسن آل ياسين و المصباح المنير أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقري دراسة و تحقيق يوسف الشيخ محمد المكتبة العصرية : جَنَّ .

فقوله : (ربِّ هبْ لِي هُدًى) مقتبس من دعوة الخليل إبراهيم - عليه السلام - حين ضرع إلى ربه :﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [1] ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾[2] ودعوة زكريا -عليه السلام – ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ [3] فكلها دعوات قرآنية آثرت التضرع بلفظ : (رب)لأنه - تعالى- مربيه ومصلح حاله ، وجاء الطلب بلفظ :(هب) لأن الهبة إحسان محض ليس في مقابلتها شيء يكون عوضاً للواهب) [4] .

وقد تأثر بها الشاعر واستحضرها صورة ماثلة أمام عينه ؛ ولأن شاعرنا تواقا إلى الهداية يرجوها ويتمناها نكر (هُدًى) لإرادة التعظيم،

ثم جاء قوله :(وأطلِقْ لِسَانِي) كناية عن البيان وفصاحة اللسان ، فأطلق اللسان وأراد القدرة على البيان الفصيح على سبيل المجاز المرسل لعلاقة الآلية وقوله:(وأطلِقْ لِسَانِي) مقتبس من دعوة كليم الله موسى -

---

١) الشعراء : ٨٣
٢) الصافات : ١٠٠
٣) آل عمران : ٣٨
٤) تفسير البحر المحيط لأبي حيان دار الكتب العلمية لبنان بيروت - ١٤٢٢ هـ٢٠٠١م الطبعة : الأولى تحقيق :عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض : ٢/ ٤٦٣

عليه السلام - ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ٢٦ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ ﴾ [1] .

ثم يختم شاعرنا ضراعته إلى ربه بطلب الثبات والتأييد مكنيا عن ذلك بإنارة الخاطر وثبات الجنان ،

ويمضى شاعرنا في ثنائه على الله تعالى فيقول :

مُلْهِم النَّفْس بالتُّقَى خَيْر مَسْرَى لمَفَازَاتِ نُوْرِكَ الرَّبَّاني

كنْ مُعِينِي إن أعجَزَتنِي القوَافِي ونَصِيري في ساميات المَعانِي [2]

أنتَ قصْدِي وغَايَتِي ورجَائِي مالكَ المُلكِ مبدعَ الأكوان [3]

وكما حذف أداة النداء في قوله : (ربِّ هبْ لِي هُدًى) حذف هنا : (مُلْهِم النَّفْس) ليكشف عن مدى إحساسه بالقرب من خالقه ومقدار لهفته في الاستجابة لمطلبه ؛ ولذا أضاف المفازات إلى النور المضاف إلى ضمير العظمة الموصوف بالرباني كناية عن شدة تلبسه بالفوز الموصل إلى النجاة ، ولحرصه على دوام العون من الله -تعالى- جاء الوصف (مُعِينِي) مسبوقا بالأمر المجازى (كُنْ) زيادة في التضرع والرجاء ، ورغبة في سرعة تحقيق المعونة المرجوة ، وفى إشارة إلى مقدرته الشعرية وتوفيقه

---

١) طه: ٢٥ ـ ٢٧

٢) الإلهامُ أن يُلْقِيَ اللهُ في النفس أمراً يَبْعَثُه على الفعل أو الترك وهو نوع من الوَحْي يَخُصُّ الله به مَنْ يشاء مِنْ عباده ، والمَفازَةُ : الفَلاةُ التي لا ماءَ بها ، سميت بذلك لأنها مَهْلَكة من فَوَزَ أي هَلَكَ ، وقيل سميت تفاؤلاً من الفَوْز بالنَّجاةِ لسان العرب لهم ، فوز.

٣) ديوان إسماعيل صبري أبو أميمه: ٢٧

الدائم وتمكنه من قرض الشعر وندرة تعجيز القوافي إياه ، جاء بأداة الشرط :(إن)الدالة على عدم تحقق الشرط[١] .

وإسناد العجز للقوافي هو إسناد مجازى لعلاقة السببية إظهاراً لأهمية القوافي وبيان مدى تأثيرها ؛ كما أن إطلاق القوافي هنا جاء على سبيل المجاز المرسل لعلاقة الجزئية إذ القافية أشرف أجزاء البيت الشعري ، و جزء له اتصال وثيق بالكل ومزيد اختصاص بالمعنى والسياق، ثم يتوجه إلى ربه بالخطاب : (أنتَ قصْدِي وغَايَتِي ورجَائِي) متضرعا إليه-تعالى - بما هو أهله ، من قدرة تامة وسلطان نافذ ، ورحمة واسعة ، (مالكَ المُلكِ مبدعَ الأكوان)حيث تتجلى معاني الإحساس بالربوبية ،والضعف أمام قدرة الله - تعالى - وسلطانه ومناجاته لربه باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب [٢] .

وهو اقتباس من القرآن الكريم قال الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦ ﴾ [٣]

---

١) (إن)تدل على الشك فى شرطها ولهذا يغلب استعمالها فى الأحكام النادرة الوقوع ينظر البلاغة العالية علم المعاني عبد المتعال الصعيدي قدم له د عبد القادر حسين مكتبة الآداب الطبعة الثانية :٩٩

٢) عن ابن عباس : عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : (اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب في هذه الآية من آل عمران (قل اللهم مالك الملك) المعجم الكبير للطبراني مكتبة العلوم والحكم ، الموصل الطبعة الثانية ، ١٩٨٣م تحقيق : حمدي بن عبد المجيد السلفي ١٢/ ١٧١ رقم ١٢٧٩٢

٣) آل عمران: ٢٦

أي: (أنت الملك المالك لجميع الممالك، فصفة الملك المطلق لك، والمملكة كلها علويها وسفليها لك والتصريف والتدبير كله لك)[1] .

وقد تكرر هذا الاقتباس أكثر من مرة فبعد نداء شامل لبنى جنسه و لَفْتِ انتباههم إلى سعة ملك الله وعظيم قدرته يضرع إلى ربه -تعالى- بمالك الملك مؤكدا تفرده- تعالى - بالحمد والثناء باستفهام تقريري فيقول :

يا بني الأرض إنَّ للهِ مُلْكاً تعلمُ الأرضُ قدرَه والسماءُ

إن رباً يُدَبِّرُ ملكاً كهذا قادرٌ دائماً على ما يشاءُ

حارتْ الخلقُ في تصور ذاتٍ بينَ حرفين أمرهُما والقضاءُ

مالكَ الملكِ إنَّ وعدكَ حقٌ مَنْ له الحمدُ غيرُه والثناءُ [2]

كما تكرر هذا الاقتباس في ثنايا التذكير ببعض مظاهر قدرة الله و عظمته ووحدانيته وسمو حكمته وإحاطته علما بكل مخلوقاته ، ومقدرته على البعث و القيامة حيث نادي :

يا ابنَ حواءَ من أماتَ وأحيا واقتداراً أحاط بالأكوانِ

يَبْعَثُ الأرضَ كلَّ عامٍ فتحيا بعدَ موتٍ بهيجةَ الأغصانِ

تُنبتُ الحبَّ والثمارَ وتزهو في بساطٍ مرصَّعِ الألوانِ

يمزج الماءَ وهو يجرى حَثِيْثاً في جذوع النباتِ بالأدْهَانِ

---

١) تفسير السعدي تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي مؤسسة الرسالة الطبعة : الأولى ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م : ١٢٦

٢) ديوان إسماعيل صبري أبو أميمه :٧٦

كلُّ شربٍ له مذاقٌ وطعمٌ قدرةٌ أعجزتْ قوى التِّبيان

فيضُ علمِ الحكيمِ ربِّ البرَايا ما بَدَا نُورُ سِرِّه في جِنانِ

لم يدعْ ذرةً على الأرض إلا ضمَّها عِلْمُه بأجْلي بَيَان

مالكُ الملكِ نافذُ الأمر فردٌ كلَّ يومٍ سُلْطانُه في شَانِ

خَلَقَ الموتَ والحياةَ لتُجْزَى طيِّباتُ الأعمالِ بالإحسان

وينالُ القِصَاصَ كلُّ أثيمٍ لم يصدِّقْ بدعوةِ الإيمان[1]

كما جاء قوله : (خَلَقَ الموتَ والحياةَ لتُجْزَى) مقتبسا من قوله تعالى: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ﴾[2]

فالآية الكريمة تتحدث عن مظهر من مظاهر قدرة الله -تعالى- ممثلة في خلق الموت والحياة (وأوثر بالذكر من المخلوقات الموتُ والحياة لأنهما أعظم العوارض لجنس الحيوان الذي هو أعجب الموجود على الأرض والذي الإنسان نوع منه)[3] .

---

١) ديوان إسماعيل صبري أبو أميمه :٥٩

٢) الملك: ١ - ٢

٣) التحرير والتنوير الطاهر بن عاشور الطبعة التونسية دار سحنون للنشر والتوزيع ١٩٩٧م : ٢٩/ ١٢

وكما قدم القرآن الموت على الحياة قدمه الشاعر(لأنه إلى القهر أقرب: وقيل: قدمه لأنه أقدم لأن الأشياء في الابتداء كانت في حكم الموت كالنطفة والتراب ونحوهما ثم اعترضت عليها الحياة)[١]

قال جار الله : (قدم الموت على الحياة ، لأنّ أقوى الناس داعياً إلى العمل من نصب موته بين عينيه)[٢] .

وكما ذكر القرآن العلة في خلق الموت والحياة وهى الابتلاء ذكر الشاعر العلة ذاتها بشيء من التفصيل والإطناب والتقسيم فقال : (لتُجْزَى طيِّباتُ الأعمالِ بالإحسانِ وينالُ القِصَاصَ كلُّ أثيمٍ لم يصدِّقْ بدعوةِ الإيمان) والفرق كبير والبون شاسع بين ما ذكره القرآن من علة لخلق الموت والحياة وما صرح به الشاعر فقد سلك النظم القرآني طريق الاستعارة في : (لِيَبْلُوَكُمْ) لإظهار الأمر الخفي، فجعل إظهار الشيء الخفي شبيهاً بالاختبار ، لأَنَّ حَقِيقَةَ الْبَلْوِ مُسْتَحِيلَةٌ عَلَى اللهِّ فهو الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ، فَلاَ يَحْتَاجُ إِلَى اخْتِبَارِهِ)[٣]

كما تكرر هذا الاقتباس أعنى: (مالكُ الملكِ) في ثنايا حديث الشاعر عن المؤمنين وما أعد لهم من ألوان النعيم حيث توجه بالنداء للنعيم في صورة بديعة مطالبا إياه بتقديم التهاني للفائزين والموعودين :

---

١) تفسير البغوي معالم التنزيل أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي محمد عبد الله النمر ـ عثمان جمعة ضميرية ـ سليمان مسلم الحرش دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة : الرابعة ، ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧م : ٨/ ١٧٣

٢) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري دار إحياء التراث العربي بيروت عبد الرزاق المهدي : ٤ / ٥٨٠

٣) ينظر التحرير والتنوير ٢٩ / ١٤.

يا نعيمَ الجناتِ رحِّبْ وباركْ وتقدَّمْ بعاطراتِ التَّهاني

وابتسمْ يا جمالُ واهتف سلاماً وتألَّق في الحور والولدانِ

هاهُمُ الأتقِياءُ حَلُّو كِراماً بَيْنَ فُيْضٍ من الرِّضي والأمَانِي

يا عبادَ الرحمنِ ها قد بلغتم فاشكروا من هَدَى إلى الإيمانِ

مالكَ المُلكِ إنَّ وَعْدَكَ حقٌ مَنْ له الحمدُ غيرُه كلَّ آنِ[1]

كما جاء الاقتباس القرآني واضحا جليا ، فبعد أن ضرع الشاعر إلى خالقه بأسمائه الحسنى وصفاته العلا :

جلَّ شأنُ الإله ربِّ البرايا خالق الخلق دائمِ الإحْسَانِ

واحدٌ قاهرٌ سميعٌ بصيرٌ عالمُ الغيبِ صاحبُ السُّلْطانِ

حكمٌ عادلٌ لطيفٌ خبيرٌ نافذُ الأمر واسعُ الغُفْرَانِ

قابضٌ باسطٌ قويٌ عزيزٌ مرسلُ الغيثِ مقسطُ الميزانِ

واجدٌ ماجدٌ حليمٌ كريمٌ ترقبُ الخلقَ عينُه كلَّ آنِ

جاء الاقتباس :

يَعلمُ السرَ فِي الصُّدُورِ وأخفى و إليه سَيُحْشَرُ الثَّقلان [2]

---

١) ديوان إسماعيل صبري أبو أميمه : ٣٥

٢) ديوان إسماعيل صبري أبو أميمه : ٢٧

وهو اقتباس من سورة طه قال- تعالى - : ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ﴾

والسر كما قال الحسن: هو ما أسر الرجل إلى غيره، وأخفى من ذلك ما أسر في نفسه ولم يعلم به أحد إلا اللّه ، وعن ابن عباس وسعيد بن جبير: السر ما تسر في نفسك وأخفى من السر ما يلقيه -عز وجل- في قلبك من بعد ولا تعلم أنك ستحدّث به نفسك)[1] .

وقد قيد الشاعر السر بكونه في الصدور وهو ما أطلقته الآية ولم تقيده ،لأن الآية جاءت لبيان إحاطته - تعالى - بكل شيء علما ، فكان الإطلاق للتعميم حتى يشمل الكلام الخفي تفوه به المرء لغيره أو احتفظ به في صدره ، أما الشاعر فلعل الوزن هو ما دعاه إلى تقيده .

ويتابع شاعرنا ثناءه على الله – تعالى- فيقول :

ظاهرٌ باطنٌ قريبٌ مجيبٌ نعمَ مَنْ فازَ منه بالرضوانِ

واعدُ المتَّقينَ جنَّاتِ عَدْنٍ <u>ولِمَنْ خافَ ربَّه جنَّتانِ</u> [2]

فيذكر أنه جل في علاه ظاهر باطن قريب مجيب مادحا الفائزين برضوان الله - تعالى- مشيرا إلى وعد الله المتقين بجنات عدن متخذا من اسم الفاعل(واعدُ) سبيلا للإشارة إلى استمرارية هذا الوعد و تحققه وتقريره بأنه واقع لا مراء فيه ، ثم يأتي الاقتباس: (ولِمَنْ خافَ ربَّه

---

١) تفسير البغوي : ٥/ ٢٦٤

٢) ديوان إسماعيل صبري أبو أميمه : ٢٧

جنَّتان) تأكيدا على وعد الله الذي لا يتخلف قال الله -تعالى -: (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)[1]

فالآية الكريمة تبين مقام المؤمنين الذين يخافون ربهم ، ويطيعونه فيما أمرهم ، فعن مجاهد ، في قوله:﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ هو الرجل يهم بالذنب، فيذكر مقام ربه فينزع)[2]

فمعنى (مَقَامَ رَبِّهِ) موقفه الذي يقف فيه العباد للحساب يوم القيامة ، وإنما قال : جَنَّتانِ لأن الخطاب للثقلين ، فكأنه قيل :لكل خائفين منكما جنتان : جنة للخائف الإنسي ، وجنة للخائف الجني. ويجوز أن يقال : جنة لفعل الطاعات ، وجنة لترك المعاصي ، لأنّ التكليف دائر عليهما وأن يقال : جنة يثاب بها ، وأخرى تضم إليها على وجه التفضل)[3] وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ التَّثْنِيَةُ مُسْتَعْمَلَةً كِنَايَةً عَنِ التَّعَدُّدِ [4] .

هذا وقد اقتبس الشاعر الآية كلها إلا أنه للحفاظ على وزن البيت وزيادة في الرهبة والخوف جعل الخوف من الذات العلية (خاف ربه)ممهدا للاقتباس بقوله : (واعدُ المتقينَ جنَّاتِ عدنٍ) فجاء اقتباسه الذي لم يغير فيه كلمة -سوى عدم ذكر المقام -حسن الموقع مستقرا في محله غير قلق .

---

١) الرحمن: ٤٦
٢) تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آى القرآن محمد بن جرير الطبرى دار الفكر بيروت ٢٧/ ١٤٥
٣) تفسير الكشاف : ٤/ ٤٥٠
٤) التحرير والتنوير : ٢٧/ ٢٦٤

وقد تكرر هذا الاقتباس مع اختلاف طفيف فبعد الإخبار عن تقديس كل شيء لعظمته وأنه- تعالى- وارث الأرض والسماءِ جميعا يوم القيامة يأتي الاقتباس :

سَبَّحَ اللهَ كلُّ شيءٍ لتبْقَى في دوامٍ فريضةُ الشكْرانِ

جلَّ شأنُ القدير ربِّ البَرايا خير هادٍ لنعمةِ الإيمانِ

وارثِ الأرضِ والسماءِ جميعاً يومَ نادَي القضاءُ آنَ أوانِي

قولُه الحقُّ إذ يقول اخشوني ولمن خاف نِقْمَتِي جنَّتانِ [1]

والفرق واضح فهناك لم يغير كلمة من كلمات الآية الكريمة أما هنا فقد استبدل قوله : (ربه)بقوله :(نِقْمَتي) .

وبعد الإشارة إلى عظيم نعم الله - تعالى- وعجز الخلق عن عدها جاء ثناؤه على الله- تعالى- مقتبسا من سورة فاطر:

كلُّ شيءٍ يُسَبِّحُ اللهَ حمداً كي يُؤَدِي فرائضَ الشُّكْرانِ

نعمٌ ساقها المُهَيْمِنُ للنا س فحمداً للمُنْعِمِ المنَّانِ

أعْجَزَ الخلقَ عدُّها فتعَالى باسطُ الرزق دائمُ الإحْسَانِ

فاطرُ الأرضِ والسمواتِ فردٌ صاحب الطَّوْلِ في عُلُوِّ الشَّانِ [2]

قال- تعالى - : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [3]

---

١) ديوان إسماعيل صبري أبو أميمه : ٦٥
٢) ديوان إسماعيل صبري أبو أميمه : ٣٢
٣) فاطر: ١

الابتداء والاختراع. قال ابْن عَبَّاسٍ «كُنْتُ لاَ أَدْرِي مَا فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ حَتَّى أَتَانِي أَعْرَابِيَّانِ يَخْتَصِمَانِ فِي بِئْرٍ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: أَنَا فَطَرْتُهَا، أَيْ أَنَا ابْتَدَأْتُهَا. والمراد بذكر السماوات والأرض العالم كله، ونبه بهذا على أن من قدر على الابتداء قادر على الإعادة."[1]

وأما تقديم السموات على الأرض فلشرفها و تقدم خلقها على الأرض) [2] .

و قد خالف الشاعر الآية حيث قدم الأرض على السموات ولعله قدمها لمناسبة الحديث عن سوق نعم المهيمن للناس وعجز الخلق عن عدها .

ثم جاء قوله:(فرد صاحب الطَّوْلِ في علو الشان) وهو اقتباس من قول الله تعالى : ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ ﴾ [3]

قال ابن عباس: (ذِي الطَّوْلِ) يعني: السعة والغنى ، والمعنى: أنه المتفضل على عباده، المتطول عليهم بما هو فيه من المنن والأنعام التي لا يطيقون القيام بشكر واحدة منها)[4] .

---

١) تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن محمد بن أحمد شمس الدين القرطبي تحقيق : أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش دار الكتب المصرية الطبعة : الثانية ، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م ١٤/ ٣١٩

٢) تفسير الماوردي النكت والعيون أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي دار الكتب العلمية بيروت لبنان تحقيق : السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم : ٢/ ٩٢

٣) غافر : ٣

٤) تفسير القرآن العظيم أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير سامي بن محمد سلامة دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة : الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م : ٧/ ١٢٨

ثم ذكر الشاعر ما يدل على سعة علم الله وشموله لكل ما في الكون فقال:

عالمُ الغيبِ والشهادةِ نورٌ يَمْلأُ الكونَ فَيْضُه الربَّانِي [1]

وهو مقتبس من قول الله تعالى :(عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ) وقد تكرر في القرآن عشر مرات [2] .

ومعنى :(عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ)أي: السر والعلانية [3] .

وَلا تَخْرُجُ الْمَوْجُودَاتُ عَنِ الاِتِّصَافِ بِهَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: الْعَالِمُ بِأَحْوَالِ جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ.

وَالتَّعْرِيفُ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ لِلاسْتِغْرَاقِ، أيْ عَالِمٌ كُلَّ غَيْبٍ وَكُلَّ شَهَادَةٍ)[4] .

وهذا الاقتباس مناسب وموضح لصاحب الطول إذ المنعم والمتفضل على العباد لابد وأن يكون عَالِما بِأَحْوَالِ جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ.

ويتجلى فيض الله الرباني الذي يملأ الكون في غفران الذنوب ولذلك قال :

غافِرُ الذنبِ قابلُ التوبِ مَلْكٌ جلَّ تشبيهُه عن الحَدَثان[5]

---

١) ديوان إسماعيل صبري أبو أميمه : ٣٢
٢) الأنعام: ٧٣ ، التوبة: ٩٤، ١٠٥ ، الرعد: ٩، المؤمنون: ٩٢،السجدة: ٦، الزمر: ٤٦، الحشر: ٢٢، الجمعة: ٨، التغابن: ١٨.
٣) تفسير ابن كثير : ٧ / ١٠٣
٤) التحرير والتنوير: ٧/ ٣٠٩
٥) ديوان إسماعيل صبري أبو أميمه : ٣٢

وهو اقتباس من قول الله تعالى ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ فهو سبحانه يغفر سائر الذنوب للمؤمنين وقابلِ توبة من تاب من عباده .

وتقديم (غَافِرِ الذَّنْبِ) على (قابلِ التَّوْبِ) مع أنه مرتب عليه في الحصول ؛ للاهتمام بتعجيل الإعلام به لمن استعدّ لتدارك أمره فوصفُ (غافر الذنب وقابل التوب تعريض بالترغيب)[1] .

وهذا من فيض الله -تعالى -وكرمه (فربما يغفر من غير توبة)[2] .

وقال:(غَافِرِ الذَّنْبِ) ولم يقل الذنوب، لإرادة للجنس والمعنى ساتر جمع الذنوب صغائرها وكبائرها بتوبة وبدونها ، ولا يفضح صاحبها يوم القيامة كما يقتضيه مقام المدح العظيم)[3] .

وقد خالف الشاعر النظم القرآنى فلم يعطف (قابلِ التَّوْبِ) على (غَافِرِ الذَّنْبِ) ولعله جاء بها على الأصل لأنّ الأصل في النعوت أن تأتي تَوابعَ دون أن تُوصَلَ بحرف عطف أما النظم الكريم فقد خالف الأصل فعطف {وَقَابِلِ التَّوْبِ}على { غَافِرِ الذَّنبِ} بالواو لغرضَ بلاغي،(وهو فيما أرى دفع توهُّم المطابقة بين غُفْرانِ الذَّنْبِ وقبول التوبة، فغفرانُ الذَّنْب قد يكون دون أن يتوبَ الْمذنِبُ من ذنبه، بل يسأل اللهَ الغفران فقط، أمّا قبولُ التوبةِ، بمعنى رجوع اللهِ إلى التائب من عباده بفيوضاتِ عطاءاته التي يُعْطِيها

١) التحرير والتنوير : ٢٤/ ٨٠
٢) تفسير حقي : ١٢/ ٣٤٧
٣) تفسير حقي : ١٢/ ٣٤٧

المتقين إذا كان منهم، أوَ الأبرار أو المحسنين إذا كان منهم، فهو شيءٌ آخر غير غفران الذنب) ([1])

وهذا الاقتباس جاء متوافقا ومكملا ومتناسقا ، فبعد أن أثنى الشاعر على الله –تعالى- ببباسط الرزق ، ودائم الإحسان وفاطر الأرض والسموات ، وعالم الغيب والشهادة وكلها صفات لله أزلية منزهة عن التجدد والتقيد بزمان دون زمان جاء :(غافر الذنب قابل التوب) كذلك اسمي فاعل يراد بهما الاستمرار والثبوت .

****

١) البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها عبد الرحمن حبنكة الميدانى دار القلم دمشق الطبعة الأولى ١٩٦٦م: ١ / ٥٦٧

المبحث الثاني

التذكير ببعض مظاهر قدرة الله تعالى :

ساق القرآن الكريم ألوانا من البراهين الساطعة والحجج الواضحة الدالة على وحدانية الله - تعالى- وقدرته وهي براهين كونية حسية مشاهدة، لا تحتاج لكثير من التفكر والتأمل والتعقل، وإنما تحتاج للانتباه لها، وفهم مدلولاتها، وما تؤديه من فوائد عظيمة أوجدها الخالق ، لنفع الإنسان، والاهتداء بها إليه تعالى ،

وقد استعرض الشاعر جانبا من تلك الدلائل معتمدا على القرآن الكريم مقتبسا منه ومتأثرا بلغته ،

فبعد التّذكير ببعض مظاهر قدرة الله - تعالى- في خلق السموات والأرض وما فيهما من مخلوقات خضعت جميعا لقدرته :

سجدَ الكونُ للمهيمنِ شكراً وجلالاً وكبَّر الخافِقان

تتجلى القدرة في بعث العباد ومحاسبتهم ومجازاتهم فهو سبحانه:

يخرجُ الميِّتَ من سلالةِ حيٍّ وكذا الحيَّ من رَمِيْمٍ فان

يَبْعَثُ الخلقَ من دَيَاجِي قبورٍ هشَّمتها تقلُّباتُ الزَّمانَ [1]

١) ديوان إسماعيل صبري أبو أميمه : ٤٣

وقد اقتبس الشاعر هذا الدليل الساطع على كمال قدرة الله -تعالى- في إخراج الأشياء من أضدادها، بإخراج الميت من الحي، وإخراج الحي من الميت، وإحياء الميت، وإماتة الحي من القرآن الكريم قال -تعالى- :

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ (١)

وكلمة (الْحَيّ و الْمَيِّت) في هذه الآية، تستعمل حقيقة ومجازا، أما الحقيقة: فهي المني يخرج منه الإنسان، فعن ابن عباس قوله:(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ) قال: يخرج من الإنسان ماء ميتا فيخلق منه بشرا، فذلك الميت من الحي، ويخرج الحي من الميت، فيعني بذلك أنه يخلق من الماء بشرًا فذلك الحي من الميت .

وأما المجاز: وهو على سبيل استعارة الحي للمؤمن، والميت للكافر فعن الحسن قوله:(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ) المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن)(٢) .

وقد آثر النظم الكريم الإتْيَانَ بصِيغَةِ الْمُضَارِعِ فِي (يُخْرِجُ ويُحْي) لِاسْتِحْضَارِ الْحَالَةِ الْعَجِيبَةِ فَهَذَا الإِخْرَاجُ وَالإِحْيَاءُ آيَةٌ عَظِيمَةٌ عَلَى اسْتِحْقَاقِهِ التَّعْظِيمَ وَالإِفْرَادَ بِالْعِبَادَةِ إِذْ أَوْدَعَ هَذَا النِّظَامَ الْعَجِيبَ فِي الْمَوْجُودَاتِ فَجَعَلَ فِي الشَّيْءِ الَّذِي لا حَيَاةَ لَهُ قُوَّةً وَخَصَائِصَ تَجْعَلُهُ يَنْتِجُ الأَشْيَاءَ الْحَيَّةَ الثَّابِتَةَ

١) الروم: ١٩
٢) ينظر تفسير الطبري : ٣/ ٢٢٥

الْمُتَصَرِّفَة ، وَيَجْعَلُ فِي تُرَابِ الأَرْضِ قُوَى تُخْرِجُ الزَّرْعَ وَالنَّبَاتَ حَيًّا نَامِيًا)[1] .

وقد أفاد الشاعر من هذه النكات البلاغية متصرفاً في الاقتباس كما نرى فزاد كلمة سلالة مع تنكير (الْحَيَّ)واستبدل الميت ب " رَمِيْمٍ فانٍ " والشاعر بذلك يبرز- بقصد أو بدون قصد - جانبا من إعجاز القرآن الكريم الماثل في دقة الصياغة و روعة التعبير وحسن النظم وجودة البلاغة في اللفظ والاختصار وجمع المعاني الكثيرة في الألفاظ اليسيرة : إذ استغنى النظم الكريم بتعريف كل من الْحَيِّ و الْمَيِّتِ عن أي تفصيل ؛ فجاء المعنى شاملا وواضحا .

وبعد إلقائه الضوء على جانب من جوانب جهاد رسول الله - صلى الله عليه وسلم – حيث قال:

ظلَّ يَهْدِى إلى صراطٍ سوىٍ ويُعانِى من الأذى ما يُعَانِى

جاهدَ المشركينَ حتى هَدَاهُم وأبيْدَتْ عِبَادَةُ الأوْثَانِ

فوقَ أنقاضِ جهلِهم كانَ يَبْنِى في ثباتٍ دعائمَ الإيمانِ [2]

توجه بالنصح والإرشاد لابن آدم داعيا إياه إلى اغتنام أيام عمره قبل أن يهاجمه قضاء الله الثابت في اللَّوْحِ المَحْفُوظِ و الذي لا يتغير إلا وفق مراده تعالى :

إنَّه العمرُ يا ابنَ آدمَ مهْما طالَ يُقْضَى في غَفْوَةِ الوَسْنَانِ

١) التحرير والتنوير : ٢١/ ٦٨
٢) ديوان إسماعيل صبري أبو أميمه : ٥٥

يُختَمُ العمرُ بالردَى وهو كأسٌ لم تُغَيَّب عن ورْدِها شَفَتَان

فإذا حُمَّ لا مردَّ لأمـــــــرٍ قد قضَاه المُحِيْطُ بالأكْوان

خَطَّ في اللَّوْح ما قضَى للبَرَايا منْ قديمِ الآبادِ والأزْمَان

يُثَبِّتُ اللهُ ما يشاءُ ويَمْحُو وبأمِّ الكتابِ أصلُ البَيَان [1]

فالبيت الأخير كما نرى اقتباس من قول الله تعالى :﴿ يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ [2]

وقد غير الشاعر في الاقتباس : فقدم الإثبات على المحو ، ولعله فعَلَ ذلكَ ليَبُثَّ الأملَ في قلوب المتلقين ، بخلاف النظم الكريم الذي قُدِّمَ فيه المحوُ على الإثبات ليناسب مقام التهديد للمشركين الذين طالبوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالإتيان بخارقةٍ ماديّة وتوهموا أن تأخر الوعيد يدل على عدم صدقه ، فجاءت الآية { يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ} لتؤكد أن محوَ الوعيد أو تأخيره لا يدل على عدم حصوله فإنَّ لذلك آجالاً أرادها الله واقتضتها حكمته وهو أعلم بخلقه وشؤونهم) [3] .

أو لأن المحو أدل على القدرة من الإثبات ، ولذا قدم المحو .

ويمضى شاعرنا قائلا :

---

١) ديوان إسماعيل صبري أبو أميمه : ٥٨
٢) الرعد: ٣٩
٣) ينظر التحرير والتنوير :١٣/ ١٦٤

يا ابنَ حوَّاءَ أمُّكَ الأرضُ أدَّتْ طاعةَ العبد لِلنِّداء الرَّبَّاني

جاءت الأرضُ والسمواتُ طوعاً حينَ نادي مُسَيِّرُ الأكوانِ

سابحاتُ الأفلاكِ في كلِّ بُرْجٍ تذكرُ اللهَ خيفةَ كلِّ آنِ

سَيَّرَتها يدُ العنايةِ لُطْفاً وَحَبَتْها بفَيْضِها النُّوراني

باسمِ ربِّ السَّماءِ كالبرق تَجْرى كلُّ نَجْمٍ يَدُورُ في حُسْبَانِ

قدرةُ الخالق العليمِ تَعَالَى كلَّ يومٍ تَدبيرُه في شَانِ [1]

فبعد الدعوة إلى التَّأمُّلِ في ملكوت الله ، والتدبر في عجائب صنعه ، يتوجه شاعرنا بالنصح والإرشاد لابن حواء ضاربا له نماذج عدة لكمال الخضوع والانقياد والامتثال التام لأمر الله -تعالى- فعلى نهج سورة الرحمن في تعداد بعض مظاهر قدرة الله- تعالى- يعدد الشاعر بعض دلائل القدرة والوحدانية من أرض و سماء وأفلاك و نجوم تسبح في الفضاء بحساب متقن، لا يختلف ولا يضطرب ، مشيداً بهذه القدرة الإلهية والتي تدبِّرُ كلَّ شيء بنظامٍ دقيقٍ وإحكامٍ بالغٍ ، فكان الاقتباس القرآني : (كلَّ يومٍ تَدبيرُه في شَانٍ) أقصر الطرق وأفضلها إفصاحا عن مراد الشاعر حيث تكفل القرآن بالإشادة بهذه القدرة ، وما على الشاعر إلا الاستعانة بهذا الاقتباس و التمهيد له ليقرَّ في مكانه ،مؤديا دوره المنشود ، قال تعالى :

﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ ﴾[2]

---

١) ديوان إسماعيل صبري أبو أميمه : ٦٠

٢) الرحمن: ٢٩، ٣٠

قال الحسين بن الفضل : (هو سوق المقادير إلى المواقيت ومعناه إن الله -عز وجل - كتب ما يكون في كل يوم ، وقدر ما هو كائن فإذا جاء ذلك الوقت تعلقت إرادته بالفعل فيوجده في ذلك الوقت)[1] .

وقد تكرر هذا الاقتباس في ثنايا حديث الشاعر عن جانب من جوانب قدرة الله- تعالى- ورحمته بعباده حيث ذكر الشمس وما تبثه للوجود من حياة ، و الأرض وما أودع فيها من كنوز وأقوات وأن كل شيء في الوجود خاضع لعلمه -تعالى - وحكمته :

لم يغب عنصر عن الأرض مهما ... عز بعدا عن عالم الإمكان

تمَّ للأرض أمرُها حيثُ باتتْ ... خيرَ مهدٍ لدولةِ الإنسانِ

بارك اللهُ ما بها وعَليها ... باسطُ الرزق مقسطُ الميزانِ

مَنْ كربِّ العُلاَ تفرَّد حُكماً ... لم يَغِبْ نورُ ذاتِه عَنْ مكانِ

بيْنَ حَرفينِ كلَّما شاءَ يقضى ... وله النَّجْمُ والشَّرَى يَسْجُدَانِ

مُطْلَقُ الحكمِ لا مَرَدَّ لأمرٍ ... من لَدُنْه جَرى به حَرْفَانِ

لم يُغادرْ نفساً على الأرض إلا ... ضَمَّ أطوَارَها دَقيقُ البيانِ

سنةُ الخالق العظيمِ تجلَّت ... كلَّ يومٍ أقدارُه في شَانِ

---

١) تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن دار الفكر بيروت لبنان : ٧ / ٦

ثم أشار الشاعر إلى شمول علم الله-تعالى- لكل شيء ، وعدم تناهى كلماته :

لو أُجاجُ البحارِ صارَ مِدَاداً وأمَدَّ البحارَ سبعٌ دَوَان

نَفِدَ الماءُ قبلَ أنْ تَتَقضَّى كلماتُ المُحيطِ ربِّ البيان[1]

والشاعر كما نرى قد اقتبس هذا المعنى من آيتين مختلفتين من كتاب الله قال تعالى :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾[2] وقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[3]

والآيتان تناولتا سعة علم الله – تعالى – بيد أن بينهما فرقا فآية الكهف تحدثت عن المداد وأنه لو كتب علم الله بمداد البحر لنفد البحر ولم ينفد علم الله ، وكذلك لو جيء ببحر آخر مثله ، وذلك لأن البحر متناهٍ وعلم الله غير متناه ، أما آية لقمان فقد جمعت بين المداد والأقلام أي: ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاما، وجعل البحر مدادًا ومَده سبعة أبحر معه، فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله لتكسرت

---

١) ديوان إسماعيل صبري أبو أميمه : ٦٢
٢) الكهف: ١٠٩
٣) لقمان : ٢٧

الأقلام، ونَفدَ ماء البحر، ولو جاء أمثالها مَدَدا وهذا من باب تقريب المعنى إلى الأذهان ، لأن هذه الأشياء مخلوقة ، وكلام الله غير مخلوق .

والمتأمل في الاقتباس يجد أن الشاعر قد مزج بين الآيتين فأحسن الصياغة وأجاد في رسم صورة جمعت بين ما اشتملت عليه الآيتان .

وبعد حديث طويل عن آلاء الله في خلقه وأفضاله عليهم يقتبس الشاعر تلك الحقيقة القرآنية التي تؤكد عجز العباد من تعداد نعم الله تعالى فضلا عن القيام بشكرها فيقول :

فيضُ برٍ على الخلائق أسْدَى سابغاتٍ من غَيْثِه الهتَّان

نعمةُ اللهِ لا تُعَدُّ و حاشا أن تَنَالَ الإحصاءَ في الحُسْبَانِ [1]

وهذا اقتباس من قول الله- تعالى- : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [2]

فالآية إخبار من الله عن عجز العباد عن تعداد نعمه عليهم فضلا عن القيام بشكرها متخذة من الشرط المصدر بـ (إن) التي تستعمل في الأمر المشكوك فيه ،والمعنى (لو وُجِدت الإرادة فليس هناك قدرة على استيعاب نعم الله ، لأن نعم الله فوق طاقة مقدور البشر)[3] وهو ما أراده الشاعر و قصده من اقتباسه ، وأفاد منه إلا أنه تصرف في الاقتباس عارضا تلك

١) ديوان إسماعيل صبري أبو أميمه : ٦٣
٢) إبراهيم : ٣٤ ، النحل : ١٨
٣) تفسير الشعراوي أخبار اليوم : ١٢/ ٧٥٥٦

الحقيقة في صورة خبر استقر : (نعمة الله لا تعد) ، منزها إياها من أن ينالها عد أو إحصاء .

وبعد تحذير من غواية الشيطان والوقوع في شراكه تأتى النصيحة لابن أدم بأخذ الحيطة والحذر وكبح جماح النفس والتذكير بالقيامة وأهوالها، والساعة وشدائدها مقتبسا من القرآن الكريم ما يدل على اليأس تارة والحيرة تارة أخرى فيقول:

أيهُا الجادُ الكنودُ تَذَكَّر	كيفَ سوَّاك خالقُ الأكْوان
دعْ مَلاهِيْكَ ساعةً وتَفَكَّرْ	في جَلالِ المُهَيْمِنِ الرَّحمَن
أينَ مِنْه المَفَرُّ وهو مُحِيطٌ	بالبرايا جمعاءَ في كلِّ آنِ [1]

فقوله : (أينَ مِنْه المَفَرُّ) اقتباس من قول الله تعالى :

﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ ﴾ [2]

والشاعر تصرف في الاقتباس بذكر المتعلق (مِنْه) لأنه جاء بعد حَضٍّ على ترك الملاهي والتفكير في جلال المهيمن الرحمن ، أما الآية الكريمة فهي تحكى مقولة الإنسان الكافر اللاهث على أمل في الفرار مما هو فيه ، فالمنكر للقيامة إذا عاين هذه الأهوال فانه لدهشته وتحيره

١) ديوان إسماعيل صبري أبو أميمه :٥٦
٢) القيامة: ٧ ـ ١٠

يتساءل : هل من ملجأ أو موئل أو مهرب ؟ استفهاما حقيقيا ،أو هو استفهام مجازى معبر عن مدى يأسه فيقول قول الآيس ، لعلمه بأنه لا مفر منه إلا إليه) [1] .

كما تكرر هذا الاقتباس في ثنايا حديث الشاعر عن البعث والحساب :

صَيْحَةُ القهرِ تجْعلُ الولْدَ شِيبا وتَغِيضُ الجنينَ قبلَ الأوَانِ[2]

وتَهُدُّ القُلوبَ دُعْراً وهَوْلاً وبريقُ الأبصارِ في لَمَعَانِ

ليسَ للظالمينَ فيه نصيرٌ أو مجيرٌ مَنْ ألسُنِ النِّيرَانِ

حكمُه الحكمُ لا يُبَدَّلُ لفظٌ سَجَّلتْه مهما نأى الشَّفَتَانِ

ذرُّه يَمْلأُ الهواءَ وجوداً وَصَداهُ يَجُوبُ كلَّ مكانِ

أبَدَ الدهرِ لفظُه سوفَ يَحْيا ليُزكِّى ما سَطَّرَ الكاتِبَانِ

أينَ مِنْه المفرُّ وهو شَهِيدٌ سَوْفَ يُدْلِى بما جَنَتْه اليَدانِ[3]

فلا فرق بين الموطنين سوى ثنائه على الذات العلية بما يناسب كل موطن من الإحاطة أو الشهادة ، كما لا يخفى أن قوله : (ليسَ للظالمينَ فيه نصيرٌ) اقتباس من قول الله تعالى : ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [4].

---

١) ينظر روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني محمود الألوسي أبو الفضل دار إحياء التراث العربي – بيروت : ٢٩ / ١٣٩

٢) غاضَ الماء قلَّ ونضب وبابه باع و انْغاضَ مثله و غِيضَ الماء فعل به ذلك و غاضَهُ اللهُ يتعدى ويلزم و أغاضَه الله أيضا وقوله تعالى { وما تَغيض الأرحام } أي ما تنقص و غَيَّضَ الدمع تَغْييضا نقصه وحبسه مختار الصحاح محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي مكتبة لبنان ناشرون بيروت محمود خاطر: ع ي ض

٣)ديوان إسماعيل صبري أبو أميمه :٦٣

٤) الحج: ٧١ ، فاطر:٣٧

كما جاء الاقتباس واضحا جليا في ثنايا حديث الشاعر عن قدرة الله تعالى في خلق السماء والأرض وما فيهما من عجائب الصنع وبدائع القدرة وحسن الشكل، وقوة التركيب ومتانة البناء، فيقول :

هلْ لهذا الوُجُودِ غيرُ إلهٍ ... واحدٍ في العُلا وفى السلطانِ

أمرهُ الأمرُ لم يُشبَّه بشئٍ ... مطلقُ الحكمِ مبدعُ الأكوانِ

سبَّحَ النَّجمُ في السماء يُؤدِّى ... واجبَ الحمدِ ما بدا الملوانِ

تَمَّ أمرُ السماءِ سبحانَ ربي ... إذ بناها قوية البُنيانِ

خلقَ الأرضَ جذوةً من شهابٍ ... لارتباطِ الأفلاكِ بالأكوانِ

ودَحَاها منْ بعدِ ذلكَ دَحْياً ... وَهَبَ الأرضَ سرعة الدورانِ[1]

فالشاعر كما نرى قد اقتبس حديثه عن خلق السماء و الأرض من القرآن الكريم قال تعالى :

﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾[2]

---

١) ديوان إسماعيل صبري أبو أميمه : ٤٠

٢) النازعات: ٢٧ ـ ٣٣

فهذه الآيات وردت في مقام التقريع والتوبيخ لمنكري البعث كاشفة لهم أن إعادتهم إلى الحياة ، ليست بأصعب من خلق السموات والأرض .

وقد آثر النظم الكريم التعبير عن خلق السماء بالبناء للإشارة إلى تشبيهها بالقباب المبنية على سكنتها [1] .

كما آثر النظم دحاها للأرض أي بسطها وأوسعها ولم يقل والأرض بعد ذلك خلقها، لأن خلقها تم قبل خلق السماء و إنما دحيت بعد خلق السماء بمعنى أنه أودع فيها منافعها [2]وهذا منتهى الإحكام في اختيار اللفظ المناسب.

وهو ما حرص الشاعر على اقتباسه والإفادة منه وتوظيفه : فالسماء بناها قوية البنيان و الأرض دحاها من بعد ذلك دحيا .

ويمضى الشاعر في استعراضه لبعض مظاهر القدرة في النظام الكوني حيث أشار إلى بديع صنع الله تعالى في خلقَ الشَّمْسُ والقمَرُ وَتَقْدِيرُ مَنَازِلِهمَا ، وَاخْتِلاَفُ سَيرِهِمَا فيقول :

ثُمَّ أوحى للبدر أن خُذْ مداراً حول سيَّارها وسِرْ في أمَانِ

ومنَ الشمس خذْ ضياءَك فاعكِسْه عليها للسَّاربِ الوجلانِ

إنَّ للبدر في خُطاه بروجاً تَتَجلَّى في وجْهِهِ كلَّ آنِ

---

١) روح المعاني ٣٠ / ٨

٢) سئل ابن عباس عن أيهما أسبق خلقا ، فأجاب بأن الأرض خلقت قبل السماء وأن الأرض إنما دحيت بعد خلق السماء، وكذلك أجاب غير واحد من علماء التفسير قديمًا وحديثًا، تفسير ابن كثير : ١/ ٢١٥

هو يَجْرِي وكَوكَبُ الشَّمْسِ يَجرِي وعلي الأرضِ يُشْرِفُ الكوكَبَان[1]

فالشاعر قد اقتبس من القرآن الكريم حديثه عن تلك الآية الكونية ممثلة في لزوم الشمس والقمر مساراً سماوياً دائما وفق نظام محكم لا يخرجان عنه، قال تعالى :

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾[2]

فالنظم الكريم يخبر عن الشمس بأنها تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا وأما القمر فينتقل في منازله حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ .

هذا وقد تصرف الشاعر في الاقتباس تصرفا لم يكن موفقا فيه إذ جعل للبدر خُطىً وجعله يجرى كجريان الشمس وكأنهما يتسابقان دون هدف أو غاية .

ثم يتابع الشاعر حديثه عن مظاهر قدرة الله تعالى ورحمته بعباده فهو الذي :

---

١) ديوان إسماعيل صبري أبو أميمه : ٤١
٢) يس: ٣٧ ـ ٤٠

خلقَ الشَّمْسَ رحمةً وحنَاناً لبقاءِ الحياةِ في عُنْفُوَانِ

وأفاضتْ يدُ العطاءِ على الأر ضِ غُيُوثاً مِنْ خيرها الهَتَّانِ

بعد تقدير قوتِها أودعتها ما يُنَمِّى جواهرَ الأبدانِ

نعمةُ الخالق الحكيمِ فأكرمْ بحنانٍ لم يؤتِه الوالِدانِ

سَخَّرَ الماءَ والهواءَ فُراتاً وعَليلاً فوقَ الثَّرى يجْريانِ

جعلَ اللَّيلَ والنَّهارَ لباساً ومعاشاً كلاهُما آيتانِ [1]

فالشاعر يشير إلى جانب من رحمة الله بعباده ممثلا في إنزاله القطر غيوثا للعباد متخذاً من اللف والنشر المرتب طريقاً لإظهار تلك المنة (٢) .

مقتبساً من القرآن الكريم قال تعالى :

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [3]

---

١) ديوان إسماعيل صبري أبو أميمه : ٤١

٢) اللف والنشر، وهو ذكر متعدد على جهة التفصيل أو الإجمال ثم "ذكر" ما لكل واحد من غير تعيين؛ ثقة بأن السامع يرده إليه.
فالأول ضربان؛ لأن النشر إما على ترتيب اللف، كقوله تعالى: {وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ} [القصص: ٧٣]. وإما على غير ترتيبه، كقول ابن حيوس:كيف أسلو وأنتِ حِقْف وغصنٌ وغزال لحْظا وقدّا وردْفا والثاني وهو ذكر متعدد على جهة الإجمال كقوله تعالى: {وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى} [البقرة: ١١١] بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب الطبعة السابعة عشر: ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م : ١ / ٤٢١

٣) المرسلات : ٢٥ ـ ٢٧

كما أشار إلى نعمة أخرى ومنة كبرى امتن الله بها على عباده حيث جعل الليل مظلماً ليسكنوا فيه ، والنهار مبصراً لابتغاء الرزق وهو اقتباس من القرآن الكريم قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ ﴾ (١)

فقد امتن الله تعالى على العباد بهذا النظام المحكم الذي فيه اللطف بهم وراحة حياتهم ، فقد جعل الليل لباسا أي كاللباس الذي يغطي البدن ويستره ويقيه من الأخطار ، كما جعل النهار معاشاً (أي سبباً للمعاش والتصرف في المصالح قال ابن عباس تبتغون فيه من فضل الله وما قسم لكم من رزقه)(٢) .

كما آثر النظم فعل { جعلنا } لأن النوم كيفية يناسبها فعل الجعل لا فعلُ الخلق المناسبُ للذوات)(٣).

وهذا ما اقتبسه الشاعر إلا أنه تصرف في الاقتباس فجاء به على سبيل اللف والنشر المرتب وأخرجه في صورة جديدة تتمشى مع سابقتها

---

١) النبأ: ١٠ ـ ١٢
٢) تفسير الخازن : ٧ / ٢٠٠
٣) التحرير والتنوير :٣٠/ ١٨

وهو في ذلك عالة على منهج القرآن الكريم قال تعالى : ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ (١)

ويتابع الشاعر حديثه عن دلائل وحدانية الله وكمال عظمته ونفاذ قدرته فقال :

جَعَلَ الشمسَ في النَّهارِ عَرُوساً ... تَتَجَلَّى في إمرةِ السُّلطانِ

وأحَلَّ البدرَ المنيرَ مَلِيكاً ... مُشْرِفاً في الدُّجَى علي الأكْوانِ

إنَّ للنَّيرَين أكبرُ فضلٍ ... ألبسَ الأرضَ حُلَّةَ العُمْرانِ

كل هذا آلاء رب قدير ... سخرتها رحماه للإنسانِ

قبضةُ اللهِ تجمعُ الأرضَ في ... يُمْناه تُطوَى مسارحُ الدورانِ

هي ذاتُ البروج سبعٌ طباقٌ ... كلَّ يومٍ بديعُها في شَانِ(٢)

فالشاعر كما نرى قد اقتبس الحديث عن مظهر من مظاهر قدرة الله تعالى يوم القيامة حيث تطوى السَّمَاوَاتُ الأرض فتكون تحت تدبيره وقهره قال تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٣)

---

١) القصص: ٧٣
٢) ديوان إسماعيل صبري أبو أميمه : ٤١
٣) الزمر: ٦٧

فالآية الكريمة كما قال مجاهد: نزلت في قريش وعن ابن عباس رضي الله عنهما { وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقّ قَدْرِهِ } هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم)[1] .

وهى تمثيل لعظمة الله تعالى وكمال قدرته بحال من تناول الأرض و أخذها في قبضته ومن طوي السماوات فمحا رسومها وطمس أفلاكها ، وآثر النظم الكريم الإخبار عن الأرض بالمصدر(قَبْضَتُهُ) وهى استعارة تصريحيه للدلالة على تمام التمكن وإحكام التصرف من المقبوض،كما آثر الإخبار عن انكدار نجوم السماء وفساد تركيبها واختلال نظامها بالطي استعارة مكنية وخص اليمين وهى كناية عن القدرة لكونها أشرف اليدين وأقواهما والتي لا غناء للأخرى دونها ، وهذه النكات البلاغية وغيرها دعت الشاعر إلى الإفادة منها وتوظيفها بهذا الاقتباس القرآني .

وبعد ثلاثمائة وخمسين بيتا جال فيها الشاعر في مجالات عدة يعود للحديث عن السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مبينا مقدار خضوعهما واستسلامهما وانقيادهما لقدرة الله تعالى اختياراً أو إجباراً فيقول :

يا ابنَ حوَّاءَ أمُّكَ الأرضُ أدَّتْ	طاعة العبد لِلنِّداء الرَّبَّاني
جاءت الأرضُ والسمواتُ طوعاً	حينَ نادي مُسَيِّرُ الأكوانِ
سابحاتُ الأفلاكِ في كلِّ بُرْجٍ	تذكرُ اللهَ خيفة كلِّ آن
سَيَّرَتها يدُ العنايةِ لُطْفاً	وَحَبَتْها بفَيْضِها الثُّوراني

١) تفسير ابن كثير : ٧ / ١١٣

باسمِ ربِّ السَّماءِ كالبرق تَجْرى كلٌّ نَجْمٍ يَدُورُ في حُسْبَانِ[1]

فالشاعر اقتبس مشهد استجابة السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وامتثالهما لأمر الله تعالى من القرآن الكريم قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾[2] فأفاد منه، واستحضره ،و عبر عنه بجملة خبرية أحسن الشاعر توظيفها ؛ لتندمج في القصيدة ، وتتلاءم مع دعوته لابن آدم بالخضوع والانقياد .

ثم يعود الشاعر للحديث عن قدرة الله تعالى وإبداعه في خلق السماء فيقول :

فَلَكٌ دائرٌ بأبْهَى نِظَامٍ رَتَّبَتْ عِقْدَه يدُ الرَّحمن

شاكراتٌ أجرامُه فضلَ ربٍ قد جَبَاها باللطفِ والإحسانِ

صانعٌ مبدعٌ عليمٌ حكيمٌ معجزٌ وصفُه قوىُ العِرْفَانِ

حاضرٌ شاهدٌ سميعٌ بصيرٌ ومحالٌ إدراكُه بالعيانِ

بدأ الخلقَ والعوالمَ دُرّاً والسموات شادها من دخانِ

رافعاً سَمْكَهَا بغَيْرِ عِمَادٍ جَلَّ شأناً وعزةً خيرُ بانِ[3]

---

١) ديوان إسماعيل صبري أبو أميمه : ٦٠

٢) فصلت: ١١

٣) ديوان إسماعيل صبري أبو أميمه :٦١

فالشاعر قد اقتبس خلق السماوات ورفعها وتشييدها من دخان من القرآن الكريم قال تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ (١)

فأفاد واستلهم هذه الحقيقة القرآنية وصاغها وضمنها في شعره .

كما اقتبس هيئة رفع السماء من القرآن الكريم قال تعالى :﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ ﴾ (٢)

يقال: سَمَكْتُ الشيءَ:رَفَعْتُه في الهواءِ (فالمراد برفع سمكها شدة علوها حتى ذكروا أن ما بين الأرض وبينها مسيرة خمسمائة عام)(٣)

فالشاعر قد اقتبس (رافعاً سَمْكَهَا بغَيْر عِمَادٍ) متصرفا في الاقتباس فجاء باسم الفاعل (رافعاً) وزاد احتراسا (بغَيْر عِمَادٍ) وهو ما لم يتطرق إليه النظم الكريم فى هذا الموطن بينما بدا تأثره واضحا بآيتي الرعد ولقمان قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ ، ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ (٤) .

****

١) فصلت: ١١
٢) النازعات: ٢٧ ـ ٢٩
٣) مفاتيح الغيب فخر الدين الرازي دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة : الأولى١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م : ٣١/ ٤٧
٤) الرعد: ٢ ، لقمان: ١٠

المبحث الثالث

النصح والإرشاد :

القرآن الكريم كتاب الإسلام الخالد ، و دستوره الجامع ، جاء لهداية الخلق وإخراجهم من الظلمات إلى النور بإرشادهم وتوجيههم إلى ما فيه صلاحهم ، وقد تأثر الشاعر بلغة القرآن الكريم فضَمَّنَ الكثير من شعره نصحاً وإرشاداً قرآنياً مقتبساً منه اقتباساً تطابقت ألفاظه في الكثير منه .

فبعد ثنائه على أشرف الخلق سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم-فهو :

خيرُ نفسٍ حَلَّتْ بأشرفِ جسمٍ خاتمُ المرسلين فَخْرُ الزمان

أحمدُ المجتبى شفيعُ البرايا هادمُ الكفر شائدُ الإيمان

جاهَدَ المشركينَ بالسَّيْفِ حتَّى دَمَّرَ الْحَقُّ دولة الأوثان

انتقل إلى النصح والتوجيه :

أيُّهَا النَّاسُ امنوا وأطِيْعُوا واذْكُروا اللهَ خِيْفَةً كلِّ آن

سبِّحوه مستغفِرين وتُوبُوا واستَعِيذوا به من الشَّيطان

طهروا النفسَ باجتنابِ المَعَاصِي واستَزيدوا هدياً مِنَ القرآن

واتقوا اللهَ رهبةً واشْكُروه أنْ هَدَاكُم لِنِعمَةِ الإيمان

واستقيموا فهو الرقيبُ عليكم ومحالٌ أنْ يختفي عنة جَاني

وَتَواصَوا بالحق واسْعَوْا كِرَاما واستَعِيْنُوا بالصبر والإيمان [1]

مستهلا نصحه وإرشاده بهذا النداء : (أيُّهَا النَّاسُ) استمالة للمتلقين ، وجذبا لانتباههم ، ليقع النصح موقع القبول والرضا ، داعياً إلى الإيمان بالله وطاعته و ذكره والاستعاذة به من الشيطان والاستعانة بالصبر إلى آخر ما ذكر من نصائح كلها قد استقاها الشاعر من القرآن الكريم واقتبسها منه قال الله -تعالى- آمرا بذكره : ﴿ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [2] وقال موجها عباده للاستعاذة به من الشيطان : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [3] ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [4] ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [5]

وقال -تعالى- آمرا عباده بالتقوى : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [6]

---

١) ديوان إسماعيل صبري أبو أميمه :٣٦
٢) الأنفال : ٤٥ ، الجمعة : ١٠
٣) الأعراف : ٢٠٠
٤) النحل : ٩٨
٥) فصلت : ٣٦
٦) البقرة : ١٩٤

كما قال تعالى منكرا على هؤلاء الأعراب الذين امتنوا على رسول الله -صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم- بإيمانهم من غير قتال [1]:﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [2]

كما أمر بالتواصي بالحق و الاستعانة بالصبر فقال : ﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣ ﴾ [3] كما قال تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ [4] فالشاعر قد اقتبس هذه النصائح والإرشادات القرآنية وضمنها شعره اقتباسا تطابقت ألفاظه تارة وتصرف في أكثره تارة أخرى .

وهذا الاقتباس الأخير : (واستعينوا بالصبر) قد تكرر أكثر من مرة يسبقه إيقاظٌ ولفتُ انتباهٍ بالنداء : (يا أيها الناس)والذي كثر في القرآن لأن فيه كما قال الزمخشري وغيره أوجها من التأكيد وأسبابا من المبالغة : منها ما في (يا) من التأكيد والتنبيه وما في (ها) من التنبيه وما في التدرج من الإبهام في (أي) إلى التوضيح والمقام يناسب المبالغة

---

١) ينظر تفسير الطبري : ٢٦ / ١٤٥
٢) الحجرات : ١٧
٣) العصر : ١ : ٣
٤) البقرة : ٤٥

والتأكيد، لأن كل ما نادى له عباده من أوامره ونواهيه وعظاته وزواجره ، ووعده ووعيده ومن اقتصاص أخبار الأمم الماضية وغير ذلك ، ومما أنطق الله به كتابه أمور عظام وخطوب جسام ومعان واجب عليهم أن يتيقظوا لها ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها وهم غافلون ، فاقتضى الحال أن ينادوا بالآكد الأبلغ) (١) .

ولذا اقتبسه الشاعر وأحسن توظيفه ، جَرْيًا عَلَى نهج القرآن وطريقته مِنْ تَقْدِيمِ التَّنْبِيهِ لِيَتَمَكَّنَ الأَمْرُ الْوَارِدُ عَقِيبَهُ فِي نَفْسِ الْمُنَادَى .

وبعد النداء يدعوهم إلى ترك اللهو وصنع الخير مستعينين بالصبر في كل خطب ، فهو دواء للنفس والفؤاد فيقول :

يا أيها الناسُ خَالِفوا طَيْشَ نَفْسٍ	صَرَفَتْها عنْ الهُدَى الأهْواءُ
واتركوا اللَّهو ما استَطعتم فعارٌ	أن تولى في غِيِّها الحَوْبَاءُ(٢)
واعملوا الطَّيِّباتِ ما لاحَ فجْرٌ	إنَّ للطَّيِّباتِ نِعمَ الجَزَاءُ
واصْنَعُوا الخيرَ للحَيَاتَيْنِ حتَّى	تأمَنَ النفسُ إنْ تَدَانَى القضَاءُ
واستْعِينوا بالصَّبر في كلِّ خطبٍ	فهو للنفسِ والفؤادِ الدَّوَاءُ(٣)

١) تفسير الكشاف : ١ / ١٢٢
٢) الحُوبُ النَّفْسُ والحَوْباءُ النفْس ممدودةٌ ساكنةُ الواو والجمع حَوْباوَاتٌ لسان العرب حوب
٣) ديوان إسماعيل صبري أبو أميمه : ١٠٠

كما تكرر في قوله :

واطْلُبُوا الرِّزقَ ما حَييتُم حلالاً واستعينوا بالصَّبر والإيْمَانِ

واسلُكُوا للصَّلاح خيرَ سَبيلٍ مِنْه تَبْدُو مَفَازَةُ الرِّضْوَانِ

واضربوا الأرضَ بالخُرَافاتِ وامشوا صَوْبَ نُور اليقين في اطْمِئْنَانِ

وازرَعوا اليومَ تَحْصُدُوا بَعْدَ حِينٍ واستَزيدُوا مِنْ خَالِدِ البُنْيَانِ

واهجُروا الخَمرَ فهي أكْبَرُ رجْسٍ مُفسِدِ الرُّوح مُتْلِفِ الأبْدَانِ

تَسْلُبُ الرُّشدَ مِنْ نُهَى مُحْتَسِيها حِينَ تَسرى في الحِسِّ كالأفْعَوَانِ

لقَّبُوها أمَّ الخبائثِ حقًّا فهيَ أقوَي حبائِلَ الشَّيطانِ

وأقِيمُوا الصَّلاةَ للهِ شُكْراً واذكُرُوه في السِّرِّ والإعْلاَنِ

سَبِّحُوا اللهَ بكرةً وأصيلاً في سجودٍ ما ضَوَّأ المشرقانِ[1]

كما جاء قوله : (وَأقِيمُوا الصَّلاةَ) في قوله :

وأقِيمُوا الصَّلاةَ للهِ شُكْراً واذكُرُوه في السِّرِّ والإعْلانِ

مقتبساً من قول الله تعالى : (وَأقِيمُوا الصَّلاةَ) والمراد بإقامتها : المداومة على أدائها على الوجه الأكمل ،وعبر عن ذلك بالإقامة لأن القيام

١) ديوان إسماعيل صبري أبو أميمه : ٧٤

بعض أركانها فاستعير للعناية بها والمواظبة على أدائها ، استعارة تبعية (تنبيهاً على أنَّ المقصود منها توفية شرائطها لا الإتيان بهيئاتها)[1] .

وقد وفق الشاعر في اقتباسه مستفيدا بما اشتمل عليه النظم الكريم من لطائف بيانية .

كما جاء قوله :

سَبِّحُوا اللهَ بكرةً وأصيلاً في سجودٍ ما ضَوَّأ المشرقان

مقتبسا من الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾[2]

أي (أول النهار وآخره ، وتخصيصهما بالذكر (بُكْرَةً وَأَصِيلا) للدلالة على فضلهما على سائر الأوقات ، لكونهما مشهودين بملائكة الليل والنهار)[3] .

(ووجوب الذكر فيهما وجوب له من غيرهما من باب الأولى)[4].

وهذا ما أراده الشاعر من لزوم الذكر والتسبيح ودوامه ؛ فكان هذا

---

١) بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز الفيروزابادى محمد على النجار دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٣ : ٥ / ١٠٨

٢)الأحزاب: ٤١ - ٤٢

٣) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج د وهبة بن مصطفى الزحيلي دار الفكر المعاصر دمشق الطبعة الثانية ، ١٤١٨ هـ : ٢٢/ ٤٠

٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م تحقيق : عبد الرزاق غالب المهدي : ٦/ ١١٤

الاقتباس الذي لم يتدخل فيه الشاعر إلا باستبدال الضمير في (وَسَبِّحُوهُ) بلفظ الجلالة .

وتتولى نصائح الشاعر و إرشاداته المقتبسة من القرآن الكريم حيث جاء تحذيره من الاغترار بالدنيا ونسيان الموت مبينا أن الأجَالَ مُوَقَّتَةٌ مَحْصُورَةٌ لاَ يَقَعُ فِيهَا تَقْدِيمٌ وَلاَ تَأْخِيرٌ :

يا ابنَ حوَّاءَ قدْ خُلِقْتَ ضَعِيفاً ... وَحَليفاً للسَّهو والنِّسْيَان

خَدَعَتْكَ الدُّنيَا فأقبلتَ تَلْهُو ... طائرَ اللُّبِّ غارقاً في الأمَانِي

إلى أن قال :

فَتْرَةُ الأرضِ في الحياةِ اختبارٌ ... فيه يُجْزَى المطيعُ بالإحسان

وبدار البقاء تَخْلُدُ نفسٌ ... في نعيمٍ أو في لَظَى النِّيران

تُنْقَلُ النفسُ من حياةٍ لأخرى ... إذ ينادِي الحِمَامُ آنَ أوانِي

إنَّه الموتُ لمْ يَدَعْ أيَّ حيٍ ... فالبَرَايَا جَمِيْعَاً به سَيَّان

فإذا جَاءَ أمرُه لمْ يُؤَخِّرْ ... وإذا حُمَّ فالمقدَّرُ دَان

ضَجْعةُ الموتِ رقدةٌ يُفْقَدُ الإنسـ ... ـانُ فيها وَيَسْكُنُ الخافقان

فهو بابٌ يجتازه كلُّ حَيٍ ... وهو كأسٌ لا بُدَّ للظمآن[1]

١) ديوان إسماعيل صبري أبو أميمه :٣٧

فقول الشاعر : (يا ابن حواء قد خُلِقْتَ ضعيفاً)استلهمه الشاعر واقتبسه من القرآن الكريم قال- تعالى- : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴾ (١)

كما جاء حديثه عن الموت : (فإذا جَاءَ أمرُه لمْ يُؤَخِّرْ) مقتبسا من القرآن الكريم قال- تعالى- : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾ (٢) وقال تعالى على لسان نوح عليه السلام ﴿ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۖ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ (٣)

وقد تكرر التحذير من الموت كثيراً في شعره فبعد ثنائه على خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم -حيث قال :

وأنَارَ القلوبَ بالهدَى حتَّى	عمَّ نورُ الهُدَى وسَادَ الضِّياءُ
وأعزَّ الإسْلامَ رغمَ أُنُوْفٍ	خَيَّمَ الكفرُ حولها والعَداءُ
شَرَّفَ اللهُ قدرَه واجتباه	فأضاءت بنوره العَلْيَاءُ
رفعَ اللهُ ذِكرَه واصطفاه	وَحَبَاه من الكريم العطاءُ

١) النساء : ٢٨
٢) الأعراف: ٣٤
٣) نوح: ٤

سيدُ العالمين خيرُ بشيرٍ قد أقرتْ ببَعْثِه الأنبياءُ

أولُ الخلق رتبةً ومقاماً خَاتَمُ الرسْلِ نُورُها الوَضَّاءُ

يا سِراجَ الهُدى عَلَيْكَ صَلاَةٌ وَسَلامٌ يَعُمُّ مِنْه الرِّضَاءُ

انتقل إلى التذكير بالموت مبينا أنه آتٍ لا مَحَالَة ، وَلا مَفَرَّ مِنْهُ فقال :

كُلُّ نَفْسٍ لابد ذَائِقَةُ الْمَوْ تِ يقيناً متى دعاها الفناءُ

سنةُ اللهِ في جميع البرايا ونفاذٌ لما أرادَ القضاءُ[1]

فقوله : (كُلُّ نَفْسٍ لابُدَّ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ) اقتباس من قول الله تعالى :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾[2]

فالكل متجرع كأس المنون ،و قد آثر النظم الكريم التعبير عن حلول الأجل بالذوق على سبيل الاستعارة المكنية تشبيها للموت عند إقباله الرهيب بشيء كريه الطعم مر المذاق (والعدول عن" تذوق الموت" للدلالة على التحقق)[3] .

كما أسند ذوق الموت إلى النفس ، ولم يسنده إلى الشخص؛ لأن النفس روح ، والشخص جزءان جسم ونفس ، وإن النفس تبقى بعد مفارقة الجسم ، فهي التي تذوق الموت ، كما ذاقت الحياة الدنيا ، فإسناد الذوق

---

١) ديوان إسماعيل صبري أبو أميمه :٩٨

٢) الأنبياء: ٣٥ و العنكبوت: ٥٧

٣) روح المعاني : ٢١/ ١٠

إليها لأنها باقية ، وقد تغيرت حياتها من حال إلى حال ، فبعد أن كانت في غلاف من جسم من الطين ، قد تجردت أبداً منه حتى تلتقى به يوم البعث والنشور) [1] .

وقد أفاد الشاعر من الدلالات البيانية التي اشتمل عليها النص الكريم بهذا الاقتباس الذي لم يتصرف فيه الشاعر سوى في زيادة كلمة (لابُدَّ) بين المسند و المسند إليه لتأكيد تلك الحقيقة ، ولاستقامة الوزن الشعري .

كما تكرر تحذيره من الموت :

واذكروا الموتَ بين آنٍ وآنِ فهو وِرْدٌ تَجْتَازُه الأحياءُ

أيْنَ كنتم يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ حتى لَوْ حَوَتْكُم في بُرْجِهَا الجَوْزَاءُ

سارعوا للهدى وعِفُّوا وَتُوبُوا واهدِمُوا إفْكَ ما اِدَّعَى الأدْعِيَاءُ[2]

فجاء قوله :

أيْنَ كنتم يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ حتى لَوْ حَوَتْكُم في بُرْجِهَا الجَوْزَاءُ

مقتبساً من قول الله تعالى : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [3]

١) زهرة التفاسير الإمام محمد أبو زهرة : دار الفكر العربي : ١٥٣٥
٢) ديوان إسماعيل صبري أبو أميمه : ١٠١
٣) النساء: ٧٨

والمتأمل في نظم هذه الآية الكريمة يجد أنها اشتملت على جملة من النكات البلاغية تكاتفت للوفاء بحق المقام الذي وردت فيه : مقام الحث على الإقدام والتبكيت على التخاذل : فجاءت الجملةُ الشَّرطِيَّة مصدرة ب(أَيْنَمَا)لاستغراق الأمكنة وإيثار لفظ الإدراك للإشعار بأنهم في الهرب منه وهو مجد في طلبهم ، ثم التجوز بإسناد الفعل إلى غير فاعله في : (يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ) زيادة في الرهبة والخوف ، و إدغام المتماثلين في (يدركَم) والذي يوحي بنقص أحرف الكلمة مما يدل على سرعة الموت في إدراك من قضى عليه الموت [1]،ثم إيثار البروج الموصوفة بالمشيدة (لأنها غاية البشر في التحصن والمنعة، فمثل الله لهم بها)[2] .

وهذا ما حرص الشاعر على اقتباسه والإفادة منه متصرفا في الاقتباس على نحو ما نرى مستبدلا البروج المشيدة بالجوزاء بما تحمل من إيقاع موسيقي بديع استكمالا للصورة وحفاظا على نسق الأبيات ونظمها .

كما اقتفى خطا القرآن في الدعوة إلى تقوى الله- تعالى- فهي خير زاد فقال :

يا ابن حواء دع غُرورَك واعلم ... أن من عَفَّ عاش في اِطْمِئْنان

خالفِ النفسَ واجتنبْ كُلَّ شرٍ ... وتباعد عن حماةِ العدوان

وافعلِ الخيرَ ما استطعتَ وأصلِحْ ... وتسابقْ في البر والإحسان

---

١) ينظر الإعجاز اللغوي والبياني في القرآن الكريم جمع وإعداد علي بن نايف الشحود : ٤٥

٢) تفسير القرطبي : ٥ / ٢٨٣

واتق اللهَ إنه خيرُ زادِ للذي رامَ خالدَ البنيان[1]

فقوله : واتق الله إنه خير زاد استلهمه الشاعر واقتبسه من قول الله تعالى :

﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ [2]

الزاد ما يتخذ من الطعام ، والتزود منه حقيقي ومنه مجازى : ذلك أن الإنسان له سفران : سفر في الدنيا وسفر من الدنيا : فالسفر في الدنيا لا بد له من زاد وهو الطعام والشراب والمركب والمال ، والسفر من الدنيا لا بد له أيضا من زاد وهو معرفة الله ومحبته ، وهذا الزاد خير من زاد المسافر في الدنيا ؛ لأنه يقي المرءَ من عذابٍ أبديّ [3]

وقد جمعت الآية بين زاد الدنيا وزاد الآخرة : فعن قتادة : إن ناسا من أهل اليمن كانوا يحجون ويسافرون، ولا يتزودون، فأمرهم الله بالنفقة والزاد في سبيل الله، ثم أنبأهم أن خير الزاد التقوى)[4].

أو أن المراد زاد الآخرة وعليه فالتزود مستعار للاستكثار من فعل الخير استعداداً ليوم الجزاء شبه بإعداد المسافر الزاد لسفره بناء على إطلاق اسم السفر والرحيل على الموت) [5].

---

١) ديوان إسماعيل صبري أبو أميمه :٣٨
٢) البقرة: ١٩٧
٣) مفاتيح الغيب : ٥/ ١٨٢
٤) تفسير الطبري : ٢/ ٢٨٠
٥) التحرير والتنوير : ٢ / ٢٣٦

ولعل المراد بالزاد هو زاد الآخرة والدليل عليه قوله بعد ذلك { فَإِنَّ خَيْرَ الزاد التقوى } .

وقد استلهم الشاعر دلالة هذه الآية ، وأجاد في الاقتباس ، بل و في توظيف هذه الصورة البيانية توظيفا جيدا خدمة لغرضه .

كما تكرر هذا الاقتباس و بصورة أخرى تنبئ عن تمكن الشاعر ومقدرته البيانية :

أيهُّا النَّاسُ خالِفوا غَيَّ نفسٍ شاغلتها وسَاوسُ الشَّيْطان

طهِّروها من الرَّذيلةِ حتى تُنْقِذُوها من ثورةِ العِصْيَان

حَاربُوها بالطَّيِّباتِ عَسَاها تَتَوَارَى عن مُفْزعَاتِ الأماني

حذَّرُوها عَيْنَ الرَّقيبِ لكي تَذْكر اللهَ خِيفة كلِّ آنِ

عُوِّدُوها على الفضيلةِ حتى تَتَحَلَّى بالسَّابقاتِ الحسان

ألبسُوها من طاعةِ اللهِ نوراً فيه تَبْقى سَعِيدةً في أمَان

زَوِّدُوها التقوى فإنَّ جَنَاها خيرُ زادٍ للمَنْهَلِ النَّفْسَانِي

ذكِّروُها أنَّ الحِسَابَ عَسِيرٌ لَوْ تَمَادَتْ في اللَّهْوِ والعصيان[1]

فقوله : زَوِّدُوها التقوى فإنَّ جَنَاها خيرُ زادٍ للمَنْهَلِ النَّفْسَانِي

اقتباسٌ واستلهامٌ لدلالة الآية الكريمة :﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾[1]

١) ديوان إسماعيل صبري أبو أميمه :٦٧

وخلال تأمله في هذا الكون الفسيح وما أبدع الله فيه من عجائب الخلق جاء تحذير ه من وقفة الحساب وما يستتبعه من سعادة وشقاء حيث يوافى كلٌ بما قدم :

كُلُّ شيءٍ فوقَ البَسيطةِ تُربٌ ... منه صِيْغَتْ هَيَاكلُ الأبدانِ

ولكلِ عُمرٌ إذا تمَّ يَذْوى ... ثم يَبْلَى على مرِّ الزَّمانِ

ستقومُ الأجْسَادُ من عالمِ الذَّرِّ ... سِرَاعاً لمْ تَخْتَلِطْ ذرَّتَانِ

قُدْرَةٌ أوْدَعَ المُهَيمنُ فيها ... ما تَنَاءَى عِلْماً عَنْ الأذْهَانِ

عِلْمُه قدْ أحاطَ بالكونِ قِدْماً ... قبْلَ خَلقِ الأرْوَاحِ والجُسْمَانِ

خَطَّ في اللَّوحِ ما أرَادَ ولمَّا ... يَبْدُ للنُّورِ هيكلُ الإنْسَانِ

مِنْ سعيدٍ ومِنْ شَقِيٍ قضَاءً ... قدَّرَتْه إرادةُ الرَّحمَنِ

إلى أن قال :

كُلُّ شيءٍ أحْصَاه عِلْماً وعَدَّاً ... في إمَامٍ مفصَّلِ التِّبيانِ [٢]

وهو بذلك مقتبس من قول الله تعالى : ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [٣] والذي اشتمل على دلالات لطيفة اقتبسها الشاعر ووظفها

---

١) البقرة: ١٩٧
٢) ديوان إسماعيل صبري أبو أميمه : ٤٧
٣) يس: ١٢

وأفاد منها فقد اشتمل القول الكريم على ما يفيد الإحاطة والعموم لما قدموا وآثارهم من كبيرة وصغيرة ممثلا في قوله : (وَكُلَّ شَيْءٍ) كما جاء الإحصاء كناية عن المجازاة : أي ونحصي ، فعبر عن إحاطة علمه بأعمالهم بالكتابة التي تضبط بها الأشياء ،كما أطلق الإمام على الكتاب لأن الكتاب يتبع ما فيه من الأخبار والشروط)[1]. وهذا ما حرص الشاعر على اقتباسه مع التصرف في الاقتباس حيث أسند الفعل(أحصى) لضمير الغيبة ثم أتبعه بالتمييز (علماً وعداً) واستبدل الوصف (مُبينٍ) ب(مفصل التبيان)لاستقامةِ الوزن الشعري.

كما جاء تحذيره من الشيطان وكيده في ختام تناوله لقصة المسيح عليه السلام وما حدث فيها من كذبٍ وإفكٍ وتضليلٍ حيث :

دَبَّرَ الآثِمُونَ كيداً ولكنْ ... أحْبَطَ اللهُ فِتْنَةَ الشَّيطانِ

كَانَ صُلبُ المَسِيحِ مِنْ قوْمِ مُوسَى ... لَيْسَ إلا ضَرْبَاً مِنَ الهَذَيَانِ

ضَلَّ كَيْدُ اليَهودِ إذْ سَوْفَ تَمْحُو ... آيةَ الحق ظُلْمَةَ البُهتَانِ

صَوَّرَ اللهُ للمَسيحِ شَبيهاً ... حِينَ قامُوا لِعَرْضِهِ للعَيَانِ

إلى أن قال

إنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كَانَ ضَعِيفًا ... وَهوَ يَدْعو للشَّرِّ والعِصْيَانِ

يوقِعِ الناسَ خَادِعا وكَذُوبَا ... في شِبَاكٍ من مُغْرِيَاتِ الأمَانِي

---

١) ينظر التحرير والتنوير : ٢٢/ ٣٥٧ : تفسير البحر المحيط : : ٧ / ٣١٢

يدفعُ النفسَ للفُجُور فتَشْقى والملذَّاتُ طُعمَةُ النِّيرَان [1]

فجاء قوله :(إنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كَانَ ضَعِيفًا)اقتباساً من قول الله تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [2]

وقد اشتمل النظم الكريم على حقيقة مؤكدة اقتبسها الشاعر و نقلها دون زيادة أو نقصان ، وأفاد منها وأحسن توظيفها خدمة وتجسيدا لمقام التحذير من كيد الشيطان وغوايته .

****

١) ديوان إسماعيل صبري أبو أميمه : ٥٢
٢) النساء: ٧٦، ٧٧

المبحث الرابع

أهوال يوم القيامة :

صور القرآن الكريم العديد من مشاهد يوم القيامة وعرضها عرضاً حياً ناطقاً ، موحياً و مؤثراً يبعث على الرهبة في النفوس ويشعر بالهول والخوف الشديد الذي يحل بالناس في ذلك اليوم.

وقد تناول الشاعر بعض هذه المشاهد وصورها تصويرا بديعا متأثرا بالقرآن الكريم ومقتبسا منه .

فبعد ثنائه على الذات العلية أحسن التخلص إلى الحديث عن البعث والحساب فقال :

مُنْعِمٌ وارثٌ علىٌ عظيمٌ باعثُ الخلق بينَ إنسٍ وجانِ

كلُّ من في الوجودِ للهِ عبدٌ وإلى اللهِ مرجعُ الإنسانِ

إنَّ يوماً تُطْوَى السمواتُ فيه كلُّ حي إلا المهيمنَ فانِ

يومَ تَهْوَى الأفلاكُ من كلِّ بُرجٍ آفِلاتٍ ويُجْمعُ النَّيرانِ

وتُدكُّ الأرضُ انهياراً ويُقضَى كلُّ أمرٍ ويَسجُدُ الخافِقانِ

صَيْحةٌ تجعلُ الرواسِيَ عِهْناً تَنْسِفُ الأرضَ بين قاصٍ ودانِ[1]

فمن البعث والنشور إلى الحديث عن القيامة وأهوالها حيث تطوى السموات وتدك الأرض وتهوى الأفلاك من كل برج آفلات ويجمع النيران وتفنى الخلائق ويقضى كل أمر ،

و كل هذه الأحداث المفجعة وغيرها اقتبسها الشاعر من القرآن الكريم فقوله : إن يوما تطوى السموات فيه اقتبسه من قول الله - تعالى- : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [2] وقوله : (كلُّ حيٍ إلا المهيمنَ فانِ) اقتبسه الشاعر من قول الله - تعالى-: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [3] وقوله :(يومَ تَهْوَى الأفلاكُ من كلِّ بُرجٍ آفِلاتٍ ويُجْمعُ النَّيران) اقتبسه الشاعر من قول الله- تعالى- : ﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ ﴾ [4] وقوله : (وتُدكُّ الأرضُ انهياراً) اقتبسه

---

١) الديوان : ٢٧
٢) الأنبياء : ١٠٤
٣) الرحمن : ٢٦ ، ٢٧
٤) القيامة : ٧ - ٩

الشاعر من قول الله - تعالى-:﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾ [١] وقوله : (صَيْحةٌ تجعلُ الرواسِيَ عِهْناً) اقتبسه الشاعر من قول الله - تعالى- : ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴾ [٢] وقوله - تعالى-:﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾ [٣] فكما نرى فقد رسم الشاعر صورة للأهوال المفجعة والحوادث المحزنة التي تقع في يوم القيامة جمع عناصرها من آيات كثيرة فأعاد تشكيلها، و ألف بينها وأجاد سبكها وأحسن صياغتها صياغة شعرية ،لا تخطيء الأذن عند سماعها أنها اقتباس قرآني أفاد الشاعر قدر استطاعته مما تضمنته النصوص الكريمة من نكات بلاغية وفاء بمقام التهويل والتخويف فقد حرص الشاعر على استبقاء المفردات القرآنية و توظيفها : (الطيّ ، الفناء ، الدَك[٤] ، الْعِهْنِ)لأنها كلمات موحية معجزة في مكانها لا يقوم مقامها غيرها : فقد آثر النظم الطيّ لأن الطي يعطي معنى الانحناء الذي يشمل الكون كله بما فيه السماء ذات الشكل المنحنى المغلق ، فلا خطوط مستقيمة في الكون بل كله منحن وهذا ما أكدته أحدث النظريات العلمية ، فالكون كله يشبه الورقة وسوف يطوي الله - تعالى - هذه الورقة يوم القيامة، ويعود الخلق كما بدأ) [٥] .

---

١) الفجر : ٢١
٢) المعارج : ٩
٣) القارعة : ٥
٤) والدَّكّ كسر الحائط والجبل ودَكَّ الأرضَ دَكًّا سَوّى صَعُودَها وهَبُوطها وقد انْدَكَّ المكان ودَكَّ الترابَ يَدُكُّه دَكًّا كبسه وسَوّاه لسان العرب: دكك
٥) كنوز الإعجاز العلمي في القرآن الكريم عبد الدائم الكحيل : ٢٠

هذا ولم يتعرض الشاعر لا من قريب ولا من بعيد لهذا التشبيه الذي دل على سهولة الأمر ويسره على الله -تعالى -حيث يطوي السماوات - على عظمها واتساعها - كطي السجل على ما فيه من المكتوب فتنثر نجومها، ويكور شمسها وقمرها.

كما آثر النظم لفظ الفناء بعموم مدلوله للإشارة إلى عموم هذا الحكم وشمول الإهلاك كل الخلائق وكذا لفظ (الدَك) للإشارة إلى قوة الهدم والتفرق والإبلاغ في تأثيره بأن صارت الأرض في غاية الاستواء ، كما آثر النظم لفظ العِهْن وهو الصُّوفُ المَصْبُوغُ[1] ·للإشارة إلى اختلاف ألوان الجبال التي تفرقت بعد اجتماعها ولانت بعد شدتها فتطايرت مختلفة الألوان فمنها الجدد البيض والحمر و الغرابيب السود وهذا ما حرص الشاعر على الإبقاء عليه وتوظيفه والإفادة منه .

كما حرص الشاعر على بناء الفعل(يجمع وتدك) لما لم يسم فاعله كما وردا في النظم الكريم وان اختلفا في زمانهما (جُمِعَ و دُكَّتِ) لينصَبَّ الاهتمام علي هذا المشهد الغيبي بخفاياه ودقائقه زيادة في بث الفزع والرعب في قلوب المتلقين لاسيما و أن فاعلها هو الله -تعالى-إذ لا يقدر علي ذلك غيره .

وكما صور الشاعر قوة الصيحة و أثرها على الأرض والجبال الرواسي متأثرا بالقرآن ومقتبسا منه صور أثرها على الإنسان في صورة قرآنية تظهر مقدار الهلع الذي يصيب الناس من جراء هذه الصيحة :

---

١) العِهْنُ الصُّوفُ المَصْبُوغُ ألواناً لسان العرب :عهن

صَيْحَةُ القَهْرِ تَجْعَلُ الوِلْدَ شِيْباً وتَغِيضُ الجَنِيْنَ قَبْلَ الأوَان [1]

فالشاعر قد اقتبس هذه الصورة المفجعة من القرآن الكريم قال الله - تعالى - ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ [2] ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢ ﴾ [3]

فالآيتان الكريمتان تصوران جانبا من الأهوال والأحزان التي تقع في هذا اليوم المهيب: فالآية الأولى بالغت في وصف هول هذا اليوم وطوله وأنه يوم يجعل الولدان شيبا ، إذ لما كان الشيب من لوازم كثرة الهموم والأحزان جعلوه كناية عن الشدة والهول ، أو أن الأطفال لطول هذا اليوم فهم يبلغون فيه سن الشيخوخة والشيب أما الأخرى فهي تصور مشهد الهول والفزع الذي ينسى الوالدة رضيعَها وتُسْقط الحوامل ما في بطونها قبل ميعاد وضعه ،وتذهب بعقول الناس وإدراكهم.

وهذا ما اقتبسه الشاعر وأفاد منه بل إن الشاعر كعادته يكشف عن سعة اطلاعه و إلمامه بألفاظ القرآن الكريم حيث اختار (تغيض) قال -

---

١) ديوان إسماعيل صبري : ٦٣ غاضَ الماء يَغيضُ غَيْضاً ومَغاضاً : قَلَّ ونَقصَ { وما تَغيضُ الأرْحامُ} أي : ما تَنْقُصُ من سَبْعَةِ الأشْهُر . والغَيْضُ : السِقْطُ الذي لم يَتِمِّ خَلْقُهُ القاموس المحيط محمد بن يعقوب الفيروزآبادي مؤسسة الرسالة بيروت : غيض

٢) المزمل: ١٧

٣) الحج : ١ - ٢

تعالى- : ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾[1]وهى لفظة معبرة عما أراده الشاعر متأثرا فيه بالقرآن الكريم إذ المراد بغيض الأرحام : (السقط الناقص) وما تزداد : (الولد التام) وهذا ما قاله ابن عباس والحسن [2] .

وبعد تناوله لقضية البعث والحكمة منه عاد الشاعر للحديث عن أهوال يوم القيامة فقال :

ظُلَمَاتٌ تعثَّرَ الخلقُ فِيها كالفرَاشِ المبثُوثِ فِي الْكُثْبَانِ[3]

أو كَسَيلٍ مِنَ الجرادِ خِضَمٍّ قذَفَتْها الأحداثُ كالطُوْفَانِ [4]

فالشاعر يصور خروج الناس من القبور، وانتشارهم في ذلك اليوم الرهيب معتمدا على وصف القرآن له ومقتبسا منه قال- تعالى - ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾ [5]﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ [6]

---

١) الرعد : ٨

٢) ينظر تفسير الماوردي النكت والعيون : ٣ / ٩٦

٣) الكَثِيبُ من الرمل القِطْعةُ تَنْقادُ مُحْدَوْدِبةً وقيل هو ما اجتَمع واحْدَوْدَبَ والجمع أكْثِبةٌ وكُثُبٌ وكُثْبانٌ مُشْتَقٌّ من ذلك وهي تلالُ الرمل وفي التنزيل العزيز وكانتِ الجبالُ كَثِيباً مَهيلاً لسان العرب كثب

٤) الديوان : ٢٩ الأحْداثُ الأمْطارُ الحادثةُ في أوّل السنة وأرضٌ مَحْدُوثةٌ أصابها الحَدَثُ لسان العرب : حدث

٥) القارعة: ٤

٦) القمر: ٧

فقد شبَّه القرآن أحوال الناس في ذلك اليوم في كثرتهم وحيرتهم واضطرابهم وانتشارهم في كل جهة بالفراش المتفرق المتطاير، المنتشر هنا وهناك على غير نظام،كما شبههم في كثرتهم وتتابعهم بالجراد المنتشر : فالناس عند خروجهم من قبورهم (يخرجون فزعين لا يهتدون أين يتوجهون، فيدخل بعضهم في بعض، فهم حينئذ كالفراش المبثوث بعضه في بعض لا جهة له يقصدها فإذا سمعوا المنادي قصدوه فصاروا كالجراد المنتشر، لأن الجراد له جهة يقصدها)[1] .

فقد حرص الشاعر على تصوير خروج الناس من قبورهم كما صورهم القرآن ، وكما وصف القرآن الفراش بكونه مبثوثا للدلالة على كثرة الناس في هذا اليوم و تهافتهم حرص الشاعر على الإبقاء علي هذا الوصف وتوظيفه وان كان قيده بالكثبان استكمالا لتفاعيل البيت ،

أما الوصف الآخر فقد تناوله الشاعر في صورة تشبيهية حاول من خلالها الدلالة على الانتشار والكثرة والتتابع، إلا أن تصوير القرآن كان أوجز وأوضح وأدق : (كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ) لأن النظم الكريم آثر (كأن) لتأكيد التشبيه [2] وللدلالة على قوة الشبه ؛ ولذا قال حازم القرطاجنى في منهج البلغاء : وإنما تستعمل (كأن) حيث يقوى الشبه حتى يكاد الرائي يشك في أن المشبه هو المشبه به أو غيره ولذلك قالت بلقيس: { كَأَنَّهُ هُوَ } [3] .

---

١) تفسير القرطبي : ١٧ / ١٣٠

٢) الأكثر على أن كأن مركب من كاف التشبيه وأن المؤكدة الإتقان في علوم القرآن : ١/ ٤٧١

٣) البرهان في علوم القرآن محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي دار المعرفة - بيروت، ١٣٩١تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم : ٢ / ٤٠٨ و الآية :(فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ) النمل : ٤٢

كما شبههم بالجراد المنتشر حيث أراد (أنهم يخرجون فزعين لا جهة لأحد منهم يقصدها، كالجراد لا جهة لها، تكون مختلطة بعضها في بعض) (١) .

وهذا ما قصر بيان الشاعر عن الإشارة إليه .

كما تناول الشاعر موقفا آخر من مواقف يوم القيامة حيث يُجْمَع الخلائقُ، فيأتون مسرعين لفصل القضاء في أرض المحشر يخيّم على الساحة جلالُ الصمت ورهبةُ الخشوع :

لا فِدَاءٌ من كَرْبه أو شَفيعٌ يَدْرَأُ الويلَ وهو رأىُ العِيَان

خَشَعَ الصَّوتُ غُصَّةٌ فهو هَمْسٌ وَمَشَى الخَوْفُ بَيْنَ إنْسٍ وجَانِ(٢)

وانكِسَاراً في ذِلَّةِ العبدِ أضْحَى كلُّ فَرْدٍ في حَضْرَةِ السُّلْطَانِ(٣)

فالشاعر يقتبس هذا المشهد المهيب من قوله -تعالى-: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾(٤)

فالآية تتحدث عن سعي الناس إلى المحشر يملكهم الخشوع والسكون والخضوع والإنصات، انتظارا لحكم الرحمن فيهم.

ومعنى :{ فَلا تَسْمَعُ إلا هَمْسًا }أي : صوتا خفيا كما يرى ابن عباس، أو وطء الأقدام كما يرى عكرمة (١) .

---

١) تفسير البغوي : ٧ / ٤٢٨
٢) الغُصَّة بالضم : ما اعْتَرَضَ في الحَلْق فأشْرَقَ القاموس المحيط غصص
٣) الديوان : ٦٣
٤) طه: ١٠٨

والآية الكريمة جاء فيها إسناد الخشوع إلى الأصوات وهو إسناد مجازى فإن الخشوع لأصحاب الأصوات؛ أو استعير الخشوع لانخفاض الصوت وإسراره (٢)

وفى ذلك مبالغة في الخشوع و تخافت الكلام ، وقد اقتبس الشاعر هذه الصورة القرآنية وأفاد منها وان كان قد تصرف فيها فأضاف إليها التمييز (غُصَّة) زيادة في تجسيد حالة السكون و المخافتة التي أفصحت عنها الآية أبلغ بيان .

و في ثنايا تناوله لبعض الأدلة والبراهين على وجود الله، ووحدانيته وقدرته عَلَى البَعْثِ وَالنُّشُور ، ساق الشاعر بعض المشاهد الرهيبة والأهوال المفجعة التي يراها الناس يوم الحشر الأكبر :

كلُّ جِسْمٍ يَدُ البلَى حَوَّلَتْه مِنْ رُفاتٍ تُرْباً كَذَر الدُّخَان

مَنْ عَلَى عَدِّ ذرِّهَا ذُو اقتِدَارٍ غيرُ ربِّ الصِّرَاطِ والمِيزَانِ

بَاعِثِ الخَلق في قِيامٍ رَهِيبٍ والسمواتُ ورْدَةٌ كالدِّهَانِ (٣)

فالشاعر قد اقتبس هذا المشهد الرهيب الذي تتحول فيه السماء يوم القيامة و يتغير لونها ويختل نظامها من القرآن الكريم قال-تعالى-: ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ ﴾ (١)

---

١) ينظر تفسير الطبري : ١٦ / ٢١٤
٢) ينظر التحرير والتنوير : ١٦ / ٣١٠
٣) الديوان : ٤٧

فالآية الكريمة جاءت في ثنايا تعديد آلاء الله الباهرة، ونعمه الكثيرة الظاهرة على العباد ببيان إحكام قدرته عليهم : ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ٣٣ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٤ يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ٣٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٦ ﴾ [٢]

وقد تساءل الإمام الزركشى عن (أي نعمة هنا وإنما هو وعيد مبينا أن نعم الله فيما أنذر به وحذر من عقوباته على معاصيه ليحذروها فيرتدعوا عنها) [٣] .

وقوله : -تعالى-: { فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ } أي صارت حين انشقاقها وتصدعها ،كالوردة الحمراء في لونها ، وكالدهان الذي يدهن به الشيء في ذوبانها وسيلانها .

و قد علق الرُّمانى على هذه الآية بقوله :(فهذا تشبيهٌ قد أخرجَ ما لم تجر به عادة إلى ما قد جرت به ، وقد اجتمعا في الحُمرةِ ، وفى لين

---

١) الرحمن: ٣٧، ٣٨
٢) الرحمن : ٣٣ ـ ٣٦
٣) البرهان في علوم القرآن : ٣ / ١٨

الجواهر السَّيَّالةِ وفى ذلك الدلالة على عظيم الشأن ، ونفوذ السلطان ، لتنصرف الهممُ بالأمل إلى ما هناك)[1].

وكما نرى فقد اقتبس الشاعر هذا المشهد الرهيب من القرآن الكريم ولم يزد على أن حول المضمر في قوله :(فَكَانَتْ)إلى اسم ظاهر مجموعا : (السماوات) ليتسنى له الإسناد إليه لتكوين جملةٍ حاليةٍ زادت من الترهيب والتخويف .

و هذا الاقتباس قد تكرر :

ففي ختام نونيته الكبرى يذكر الشاعر بيوم القيامة وما فيه من أهوال محذرا من مشهد الحساب وعرض السجلات :

فيقول :

إنَّ عَيْشَ الدُّنيا وإنْ طالَ يومٌ ... فيه تمَّتْ صَحيفةُ الإنسان

طائرٌ ناطقٌ كتابٌ شهيدٌ ... سُجِّلَتْ فيه صادقاتُ البَيَان

عَزَّزَتْ صِدْقه شَهادَةُ أيدٍ ... وجُلُودٍ وأعْيُنٍ ولِسَان

فاخْشَوْا اللهَ واتَّقُوه تَقُومُوا ... من دَيَاجِى أجْدَاثِكم في أمَان

يومَ يَهْتَزُّ مَنْكِبُ الأرضِ رُعباً ... والسمواتُ وردةٌ كالدِّهَان

يَومَ لا تَمْلِكُ النفوسُ فِداءً ... أو فِرَاراً مما تَرَى وتُعَانِى

---

١) النكت في إعجاز القرآن لأبى الحسن على بن عيسى الرماني ـ ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن محمد خلف الله أحمد ، محمد زغلول سلام دار العارف ، الطبعة الثالثة ص ٨٣

وله الأمرُ وحدَه في جُمُوع تسألُ العَفْوَ بَيْنَ إنسٍ وَجَان [1]

فقد جعل للأرض منكبا يهتز رعبا حال تحول السماوات إلى وردة كالدهان .

وفى بداية همزيته الكبرى يُسْدِي الشاعر نُصحَه وإرشاده فيدعو إلى الاعتصام بدين الله والاستعانة به و التحذير من القيامة وأهوالها :

يا بني الأرض إنَّ للهِ مُلْكاً تعلمُ الأرضُ قدرَه والسماءُ

إن رباً يُدَبِّرُ ملكاً كهذا قادرٌ دائماً على ما يشاءُ

حارتْ الخلقُ في تصور ذاتٍ بينَ حرفين أمرهُما والقضاءُ

مالكَ الملكِ إنَّ وعدكَ حقٌ مَنْ له الحمدُ غيرُه والثناءُ

تَرْجُفُ الأرْضُ والجِبَالُ ويُقْضَى كلُّ أمرٍ ويَسْتَكِنُّ الهَوَاءُ[2]

فقد اقتبس الشاعر هذا المشهد الرهيب لتحرك الأرض وارتجاجها وتشقق الجبال وتفتتها من القرآن الكريم قال الله-تعالى- : ﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ ﴾ [3]

---

١) ديوان إسماعيل صبري أبو أميمه : ٧٤
٢) الديوان : ٧٦
٣) المزمل: ١٢ ـ ١٤

فالآيات جاءت في مقام التهديد والوعيد لِهَؤُلاَءِ الكَفَرَةِ المُكَذِّبينَ أرباب الغنى والترف والتلذذ في الدنيا حيث توعدهم الله -تعالى- بألوان من العقوبات الشديدة في يوم تَضْطَربُ الأرْضُ فِيهِ ، وَتَتَزَلْزَلُ الجِبَالُ ، وَتَتَفَرَّقُ أجْزَاؤُهَا ، وَتَصِيرُ كَالكَثِيبِ المَهِيلِ مِنَ الرَّمْلِ ،

وكما نرى فقد اقتبس الشاعر قوله : (تَرْجُفُ الأرْضُ والجِبَالُ) من الآية الكريمة دون أن يغير فيها حرفا .

وما يحدث للأرض ، فسيكون حادثا للسماء أيضا وما فيها ، فالسماء سوف تنفطر ، والكواكب ستنثر وهذا المعنى قد صوره الشاعر بقوله :

و تَمُوْرُ السَّماءُ مَوْرَاً ويَهْوَى كلُّ نَجْمٍ وتَفْزَعُ الأرْجَاءُ [1]

وهو في ذلك شأن كل الأمور الغيبية التي تفرد بذكر تفاصيلها القرآن الكريم قال الله-تعالى- : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ ﴾ [2]

والآيات وردت في مقام التهديد والوعيد بوقوع العذاب للمشركين المكذبين بالنبي -صلى الله عليه وسلم - مبينة أن هذا العذاب ليس له مِن مانع يمنعه حين وقوعه ، يوم تتحرك السماء فيختلُّ نظامها وتضطرب أجزاؤها .

---

١) الديوان : ٧٦
٢) الطور: ٧ - ١١

وقد اختلفت عبارات المفسرين في :قوله : (يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا) فقال ابن عباس : يوم تشقَّق السماء وعن مجاهد : تدور دورا، وعن قتادة، : تحريكها) [١] .

وكلّها معان متقاربة فأصل المَوْر الاختلاف والاضطراب و"المور" يجمع هذه المعاني، فهو في اللغة: الذهاب والمجيء والتردد والدوران والتحرّك والاضطراب)[٢] .

وأكد الفعل بمصدره للإيذان بغرابته و وخروجه عن الحدود المعهودة أي : مَوراً عجيباً لا يُدرك كنهه ، و لرفع توهم المجاز في الفعل) [٣] .

وقد أفاد الشاعر من كل هذه النكات البلاغية ووظفها خدمة لمقام الزجر و التهديد والوعيد فكان هذا الاقتباس الذي لم يغير فيه الشاعر حرفا.

ويمضى الشاعر للحديث عن الساعة و أشراطها فيقول :

دَنَتْ السَّاعةُ الرهيبةُ لَمَّا ... جاءَ أشْرَا طُهَا وحُقَّ الجَزَاءُ

وعَلَتْ صيحةٌ تجمَّعَ مِنْهَا ... بالِياتُ الرُّفاتِ والأشْلاءُ

دَكَّتْ الأرضَ والجبالَ وهَدَّتْ ... كلَّ طودٍ مريعةٌ بَطْشَاءُ

صَيَّرتْ شامخَ الرواسخ عِهْنَاً ... وَتَنَحَّتْ عَنْ حَمْلِها الجَرْدَاءُ

ألقَتْ الأرضُ ما بها وتخَلَّتْ ... وتداعَتْ عَنْ أفْقِها الصَّمَّاءُ [١]

---

١) تفسير الطبري : ٢٢ / ٤٦٣
٢) لسان العرب : مور
٣) ينظر تفسير أبي السعود إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم محمد بن محمد العمادي أبو السعود دار إحياء التراث العربي - بيروت : ٨ / ١٤٧

إنَّ هذا يومُ الحِسابِ فطاشَتْ يا بني الأرضِ مُقْلةَ عَمْيَاءُ

يومَ يَدْعُو كُلُّ امرئ ربِّ نفسي وتفرُّ الآباءُ والأبناءُ[٢]

فالشاعر يصور جانبا من مشاهد يوم القيامة وأهوالها حيث

دَكَّتْ الأرضَ والجبالَ وهَدَّتْ كلَّ طودٍ مريعةٍ بَطْشَاءُ

صَيَّرتْ شامخَ الرواسخ عِهْنَاً وَتَنَحَّتْ عَنْ حَمْلِها الجَرْدَاءُ

وفى ذلك اقتباس من قول الله- تعالى - :﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾ [٣]

وقوله:﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ ﴾ [٤]

وقوله : (تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا) [٥]وقوله : (وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ) [٦] فالشاعر قد اعتمد على القرآن الكريم واقتبس منه فالأرض تدك والجبال تهد وتصير عهنا .

ويضيف مشهدا آخر يزيد من رهبة الموقف وشدته حيث تُبَادِرُ الأرضُ بإخراج ما في بطنها من الأموال والكنوز والأموات وتتخلى عنهم :

ألقتْ الأرضُ ما بها وتخَلَّتْ وتداعَتْ عَنْ أفْقِها الصَّمَّاءُ

---

١) يقال أسْألُ من صَمَّاءَ يعني الأرضَ والصَّمَّاءُ من الأرض الغليظة لسان العرب : صمم
٢) الديوان : ٧٧
٣) الفجر : ٢١
٤) الحاقة : ١٣ ، ١٤
٥) مريم : ٩٠
٦) المعارج : ٩

وهو اقتباس من القرآن الكريم قال الله - تعالى- ﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ ﴾ (١)

فالآية الكريمة تصور ما يحدث يوم القيامة للأرض ومعنى (وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ) أي خلا جوفها، فليس في بطنها شئ، وذلك يؤذن بعظم الأمر، كما تلقى الحامل ما في بطنها عند الشدة) (٢) .

وقد آثر النظم الكريم مادة التفعل في(تَخَلَّتْ) للدلالة على أن الأرض (خلت غاية الخلو حتى لم يبق شيء في باطنها ، كأنها تكلفت أقصى جهدها في الخلو) (٣) .

وإسناد هذه الأفعال للأرض إسناد مجازى وَوُصِفَت الأرض بذلك توسعاً و(كأنها فاعلة له على هذا الوجه ، فصارت خلية عن كل شيء كان في بطنها وصار بارزاً على ظهرها) (٤) .

وقد حرص الشاعر على الإفادة من هذه النكات وتوظيفها وذلك بالإبقاء على النص القرآني قدر استطاعته دون تغيير .

ويمضى الشاعر إلى الحديث عن الموت وشدته وما يعقبه من أهوال وشدائد فقال :

---

١) الانشقاق : ٣ ، ٤
٢) تفسير القرطبي : ١٩ / ٢٧٠
٣) تفسير الكشاف : ٤ / ٧٢٧
٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : ٨/ ٣٦٨

يَومُ يَلتَفُّ كلُّ ساقٍ بساقِ ويُسَاقُ الضِّعافُ والأقْوِياءُ

يَوْمُ فصلٍ تُبْلَى السَّرَائِرُ فيه حائرات من هَوْلِه هَلْعَاءُ

يومَ لا تملِكُ النفوسُ انتصاراً وله الأمرُ وحدَهُ والقَضَاءُ

كلُّ نفسٍ يُغْنِي لها فيه شأنٌ عن سِواها ولا يُفِيدُ الفِدَاءُ

كلُّ نفسٍ لها لِسَانٌ وعَيْنٌ وفؤادٌ وكلُّهَا رُقَبَاءُ

ثُمَّ أيدٍ وأرجُلٍ وجلودٍ تَنْطِقُ الحَقَّ أنَّهم شُهَداءُ[1]

فالشاعر يعرض مشاهد متنوعة لأهوال يوم القيامة :

فبدأ بمشهد الاحتضار بتفاصيله الدقيقة والذي اقتبسه الشاعر من القرآن الكريم قال -تعالى- : ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾ [2]

فالآية الكريمة تصور لحظات خروج الروح وتصف الحالة التي يتهيَّأ بها المحتضر حيث (الْتَفَّتِ السَّاقُ بالسَّاق) والمراد ساقا الميت عندما لفا في الكفن ، أو أن التفاف الساقين كناية عن شدة الأمر وعظم الخطب والتقاء الأهوال بالأهوال ، أو أنه من (باب التمثيل) للأمر الهائل العظيم ،

---

١) الديوان : ٧٧
٢) القيامة: ٢٦ ـ ٣١

حيث يلتقي عليه شدة كرب الدنيا ، مع شدة كرب الآخرة ، كما يقال : شمرت الحربُ عن ساقٍ ، استعارة لشدتها)[1]

كما اشتمل النظم الكريم على الجناس الناقص في (السَّاق ، الْمَسَاق)

كما اقتبس قوله : (يَوْمَ فصل تُبْلَى السَّرَائِرُ فيه) من قول الله -تعالى-

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝١١ ﴾ [2]

فالآية الكريمة جاءت في معرض إثبات قدرة الله -تعالى- على البعث وإعادة الإنسان بعد الفناء ،لأن إعادة خلق الإنسان ليست أصعب من خلقه أوّلا .

ومعنى (تُبْلَى السَّرَائِرُ) أي تظهر الخفايا و تُخْتَبر السرائر فيما أخفته، ويُمَيَّز الصالح منها من الفاسد، وهو كناية عن الحساب عليها والجزاء ، وقد جاء الفعل مبنيا للمفعول (للإشارة مع التنبيه على السهولة إلى أن من الأمر البين غاية البيان أن الذي يبلوها هو الذي يرجعها ، وهو الله - سبحانه وتعالى- من غير احتياج إلى ذكره)[3] .

كما جاء قوله :

---

١) صفوة التفاسير محمد علي الصابوني دار القرآن الكريم بيروت الطبعة الرابعة : ٣ / ٤٨٧ كما ينظر البحر المحيط : ٨ / ٣٨١

٢) الطارق: ٥ - ١١

٣) نظم الدرر : ٨ / ٣٩٠

يومَ لا تملِكُ النفوسُ انتصاراً ولـه الأمرُ وحدَهُ والقَضَاءُ

مقتبسا من قول الله -تعالى- : ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩ ﴾ (١)

فيَوْمُ القِيَامَةِ يَوْمٌ لاَ تَسْتَطِيعُ فِيهِ نَفْسٌ أَنْ تَنْفَعَ نَفْساً والله -تعالى- هو المتفرد بالأمر في الدنيا والآخرة ، والأمر هنا بمعنى : (التصرف والإذن وهو واحد الأوامِر ، فإن الأمر من شأن الملك المطاع) (٢).

وجاء معرفا لإرادة الاستغراق والقصر أي الأمر له-تعالى- وحده لا لغيره ،وكل هذه النكات البلاغية استحضرها الشاعر واقتبسها ووظفها وأفاد منها وكان تصرفه في الاقتباس تصرفا يسيرا حتى يتواءم مع نظم الشعر وسياق الكلام .

كما جاء تعليله لضعف الخلائق وعجزهم الشامل عن نصرة بعضهم بعضا يوم القيامة مقتبسا من القرآن الكريم فقوله :

كلُّ نفسٍ يُغْنِي لها فيه شأنٌ عن سِواها ولا يُفِيدُ الفِدَاءُ

١) الانفطار: ١٧- ١٩
٢) روح المعاني : ٣٠ / ٦٧

اقتبسه الشاعر من قول الله -تعالى- : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [1] وقول: ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [2]

فهو يوم مهول تَتَقطَّعُ فِيهِ الأسبابُ بينَ النَّاس ، فلا يَسْألُ فيهِ قريبٌ عَنْ قريبٍ ، وَلاَ يَدْفَعُ أحَدٌ عَنْ أحَدٍ شَيئاً مِنْ عَذابِ اللهِ ؛ لانشغال كل إنسان بنفسه .

والشاعر كما نرى قد استلهم هذا المعنى واقتبسه وصاغه صياغة شعرية .

كما جاء قوله :

كلُّ نفسٍ لها لِسَانٌ وعَيْنٌ وفؤادٌ وكلُّهَا رُقَبَاءُ

ثُمَّ أيدٍ وأرجُلٍ وجلودٍ تَنْطِقُ الحَقَّ أنَّهم شُهَداءُ

مقتبسا من قول الله -تعالى- : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ

---

١) عبس : ٣٣ : ٣٧
٢) الدخان : ٤٢

مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [1] وقوله : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [2] وقوله: ﴿ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [3]

فالآيات تصور موقفا من مواقف العرض والحساب حيث يُنْكِرُ الكُفَّارُ والمُجْرِمُونَ ما اقترفوه مِنْ كُفْرٍ وَتَكْذِيبٍ وَآثَامٍ ، فَيَخْتِمُ اللهُ عَلَى أفْوَاهِهِمْ ، وَيَسْتَنْطِقُ جَوَارِحَهُمْ ، فَتَشْهَدُ عَلَيْهِمْ .

والشهادة شهادة تكذيب وافتضاح زيادة في الإحساس بالخزي لهم وتحسيراً وتنديماً .

وقد اقتصر النظم الكريم في قوله :(وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّار فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)على حواس :(السمع والبصر واللمس)لأنها الحواس التي جاء فيها التكليف ، كما أنها المباشرة لغالب المعاصي بخلاف الشم فلا تكليف فيه[4] .

أما آية النور فقد وردت في مقام حَدِيثِ الإفْكِ الذي أطْلَقَهُ بَعْضُ المُنَافِقِينَ بحَقِّ السيدة عَائِشَةَ أمَّ المُؤْمِنِينَ- رضْوَانُ اللهِ عَلَيْها- فَبَرَّأهَا اللهُ

---

١) فصلت : ١٩ : ٢١
٢) النور : ٢٤
٣) يس : ٦٣ ـ ٦٦
٤) ينظر تفسير البحر المحيط : ٧ / ٤٧١

وَنَزَّهَهَا عَنْ الكَذِبُ والبُهْتَانُ وَالافْتِرَاءُ ؛ ولذا فقد خصت بالشهادة من الجوارح :(الألسن والأيدي والأرجل)(لأن لهذه الأعضاء عملاً في رمي المحصنات فهم ينطقون بالقذف ويشيرون بالأيدي إلى المقذوفات ويسعون بأرجلهم إلى مجالس الناس لإبلاغ القذف)[1] .

والشاعر كما نرى قد حذر بلغته الشعرية من يوم القيامة ومن هذا الموقف المهيب حيث تشهد الجوارح بما اقترفت شهادة تكذيب وافتضاح مزيدا في الإحساس بالخزي وتحسيراً وتنديماً ، وهو في ذلك متأثرٌ بالقرآن الكريم ومقتبسٌ منه جامعا بين تلك الجوارح التي أوردتها الآيات عدا حاسة السمع التي أغفلها الشاعر ، مضيفا إليها الفؤاد الذي لم يرد ذكره في الآيات .

كما صور الشاعر خروج الناس من أجداثهم يملأهم الخوف والفزع ، ويحدوهم الرجاء والأمل متأثرا بالقرآن الكريم ومقتبسا منه فقال :

يَهْرَعُ الناسُ مُنْذُ أوَّلِ خَلْق ... واجِفَاتٌ قُلُوبُها حَيْرَاءُ [2]

بعثرتْها القبورُ تجرى سِرَاعَاً ... أفْزعَتها من نومِها الدَّهْمَاءُ

ماجتْ الأرضُ تحتَ أقدامِ خلقٍ ... كجرادٍ يضيقُ عنه الفَضَاءُ

مُدَّتْ الأرضُ كى تُوَفَّى جُمُوعَاً ... فوقهم تُمْطِرُ العذابَ السَّماءُ

---

١) التحرير والتنوير : ١٨ / ١٩١

٢) (هرع) الهَرَعُ والهُراعُ والإهْراعُ شدَّة السَّوْق وسُرْعة العَدْو وأهْرعَ الرجلُ على ما لم يسم فاعله خَفَّ وأرْعِدَ من سُرْعةٍ أو خوْفٍ أو حِرْصٍ أو غَضَبٍ أو حُمَّى وفي النزيل وجاءه قومه يُهْرَعُون إليه قال أبو عبيدة يُسْتَحَثُّون إليه كأنه يَحُثُّ بعضهم بعضاً لسان العرب هرع

يا بني الأرض تلك وقفةُ حَشْرِ يا ابنَ حواءَ أنتَ طِيْنٌ وماءُ

كُلُّ فردٍ له كِتَابٌ قديمٌ سُجِّلتْ فيه رَحْمَةٌ أوْ بَلاءُ

لَمْ يُغَادِرْ صَغِيرةً ما حَوَاهَا قدرةُ اللهِ مَنْ له ما يَشَاءُ[1]

إلى أن قال :

كلُّ شَيءٍ يُسبِّحُ اللهَ حمداً أبَدَ الدَّهر كي يدومَ الثناءُ

وبنور الإلهِ أشْرَقتْ الأر ضُ وجاءَ النبيُّونَ والشُّهَدَاءُ

وقُضِيَ الحقُّ بينَهم حُكْمُ عدلٍ وبوَعْدِ الإلهِ تَمَّ الرِّضاءُ[2]

فقوله :(يَهْرَعُ الناسُ) اقتباس من قول الله -تعالى- : ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ ﴾[3]أي: يسرعون ويبادرون ويهرولون وقد حرص الشاعر على اقتباس الفعل مبنيا للمفعول كما ورد في الآية الكريمة للإشارة إلى نوع من السير يتناسب وهول الموقف فأصل الهرع (مشي الأسير الذي يُسرَع به . وهذا البناء يقتضي أن الهَرْع هو دفع الماشي حين مشيه؛ إلاّ أن ذلك تنوسِيَ ، وبقي أهرع بمعنى سار سيراً كسير المدفوع)[4] فالناس يخرجون من قبورهم يهرعون يتدافعون كأن سائقاً يسوقهم ويدفعهم .

---

١) الديوان : ٧٨
٢) الديوان : ٧٩
٣) هود : ٧٨
٤) التحرير والتنوير : ١٢/ ١٢٦

وقوله:(واجِفَاتٌ قُلُوبُها)أي فزعة شديدة الاضطراب من الخوف وهو اقتباس من قول الله -تعالى- : ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾[1] (قال ابن عباس: يعني خائفة ،وكذا قال مجاهد، وقتادة)[2] .

والمراد بهذه القلوب : قلوب المشركين الذين أنكروا في الدنيا البعث والجزاء ، فلما بعثوا اعتراهم الرعب الشديد ، والفزع الذي لا يقاربه فزع) [3] .

كما أن قوله :(بعثرتْها القبورُ) اقتباس من قول الله -تعالى- : ﴿ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾[4] أي قُلِبت ببعث مَن كان فيها من جثث كاملة ورفات بالية .

و قوله :(مُدَّتْ الأرضُ كى تُوَفَّى جُمُوعَاً) اقتباس من قول الله -تعالى- : ﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴾[5] أي: رجفت وارتجت، ونسفت عليها جبالها، ودك ما عليها من بناء ومعلم، فسويت، ومدها الله -تعالى - مد الأديم، حتى صارت واسعة جدًا، تسع أهل الموقف على كثرتهم، فتصير قاعًا صفصفًا لا ترى فيها عوجًا ولا أمتا)[6] .

---

١) النازعات : ٨
٢) تفسير ابن كثير : ٨ / ٣١٣
٣) التفسير الوسيط محمد سيد طنطاوي موقع التفاسير : ١ / ٤٤٢٦
٤) الانفطار : ٤
٥) الانشقاق : ٣
٦) تفسير السعدي تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان عبد الرحمن ناصر السعدي عبد الرحمن بن معلا اللويحق مؤسسة الرسالة الأولى ١٤٢٣هـ -٢٠٠٢م : ٩١٧

و قوله :(لَمْ يُغَادِرْ صَغِيرةً ما حَوَاهَا) اقتباس من قول الله -تعالى- :

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾[1]

فالشاعر كما نرى ذكر مشاهد عدة لأهوال يوم القيامة اقتبسها كلها كما بينا من القرآن الكريم واختتمها بالحديث عن أرض المحشر حيث يَتَجَلَّى الحق عَلَى الخَلاَئِقِ المَحْشَورَةِ إلَيهِ لفصل القضاء ، وهو في ذلك -لا شك -مقتبس من القرآن الكريم قال الله -تعالى- ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [2]

فالآية الكريمة تصف أرض القيامة حيث أشْرَقت بنُور رَبِّهَا حِينَ يَتَجَلَّى الحق عَلَى الخَلاَئِقِ المَحْشَورَةِ إلَيهِ ، وَيُوضَعُ الكِتَابُ الذِي يَحْوِي أعْمَالَ الخَلاَئِقِ جَمِيعاً وَيُحْصِيهَا عَلَيهِمْ ، وَيُؤتَى بالنَّبِيِّينَ والشُّهَدَاءِ (و يعني بالشهداء: أمة محمد - صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم - ويستشهدهم ربهم على الرسل، فيما ذكرت من تبليغها رسالة الله التي أرسلهم بها ربهم إلى أممها، إذ جحدت أممهم أن يكونوا أبلغوهم رسالة الله)[3] .

---

١) الكهف : ٤٩
٢) الزمر: ٦٩ - ٧١
٣) تفسير الطبري :٢٤ / ٣٣

وكما هو ملاحظ فالأحداث والمشاهد في هذه الآية الكريمة لم تقع بعد، ولكن النظم الكريم آثر التعبير عنها بصيغة الماضي لتحقق الوقوع (وكأنها أحداث قد تقضت، وانقضت)[1] .

كما آثر النظم إضافة النور إلى الرب إضافة تعظيم و تشريف للمضاف .

وقد اقتبس الشاعر هذا المشهد المهيب وصاغه صياغة شعرية متأثرا بلغة القرآن و مستفيدا بتلك النكات البلاغية وموظفا إياها خدمة ووفاء بمقام الترهيب والتخويف وكان تصرفه في الاقتباس تصرفا محدودا.

كما صور الشاعر مشاهد النعيم والعذاب وحَالَ الأَشْقِيَاءَ، وَمَا يُلاَقُونَهُ فِي الآخِرَةِ مِنَ الأَهْوَالِ الشَّدِيدَةِ فِي نَار جَهَنَّمَ ، كَمَا بَيَّنَ حَالَ السُّعَدَاءِ الأَبْرَار وَمَا يَنَالُونَهُ مِنْ فَوْزٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ متأثرا بلغة القرآن ومقتبسا منه .

فبعد الحديث عن صيحة القهر وأثرها و قوتها على الخلائق :

صَيْحةُ القَهْرِ تَجْعلُ الوِلْدَ شَيْبَاً وتغيضُ الجَنِينَ قبلَ الأوَانِ

ليسَ للظَّالِمِيْنَ فيه نصيرٌ أو مُجِيرٌ من ألْسُنِ النِّيرانِ

لا فِداءٌ مَنْ كَربه أو شفيعٌ يَدْرَأُ الوَيْلَ وَهُوَ رَأىُ العَيَانِ

---

١) ينظر خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني د محمد أبو موسى مكتبة وهبة
الطبعة الرابعة ١٩٩٦م : ٢٦٧

خَشَعَ الصَّوتُ غُصَّةً فهو هَمْسٌ ومشى الخوفُ بين إنْسٍ وَجَانِ

وانكِسَاراً في ذلَّةِ العبدِ أضْحَى كلُّ فردٍ في حضرةِ السُّلْطَانِ (١)

انتقل مهددا منكري البعث ومذكرا إياهم بما أعِد لهم من عذاب أليم

كلُّ مَنْ أنكرَ القيامةَ كبراً وَجُحُوداً هوى إلى النَّيرانِ

بئس مثواه في الجَّحِيْمِ وَعَدْلاً سوف يلقى عَواقِبَ الكُفْرَانِ

وَسَيَصْلَى السعيرَ فى أصفادٍ أثقلتْها الأغلالُ للأذْقانِ

دركاتٌ سبعٌ طباقُ عذابٍ من جحيمٍ وَهَّاجَةِ الأركانِ

ساریاتُ السُّموم تَنْسَابُ فيها وسيولُ الحَمِيْمِ فى غَلَيَانِ

يَوْمَ يُدْعَى هَلْ امتلأتِ وتَدْعو رَبِّ زِدْنِي من طُعْمَةِ الإنسانِ(٢)

فقوله :

وَسَيَصْلَى السعيرَ فى أصفادٍ أثقلتْها الأغلالُ للأذْقانِ

وصف لما أعِد لهؤلاء الأشقياء الجاحدين المنكرين للقيامة كبرا وجحودا من سعير وأغلال .

والشاعر في ذلك متأثر بالقرآن الكريم و مقتبس منه قال الله -تعالى- : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ (٣)

---

١) الديوان : ٦٣
٢) الديوان : ٦٤
٣) يس: ٨

فالآية الكريمة تصور على سبيل الاستعارة التمثيلية حال هؤلاء الكافرين الجاحدين فِي تصميمهم على الكفر وتماديهم في الإنكار، بمن جعل في عنقه غل يمنعه من الالتفات ، وغطى على بصره فصار لا يرى ،والجامع مطلق المانع.

وهذا هو الرأي الأول والثاني أنها عبارة عن كفهم عن إذاية النبي -صلى الله عليه وسلم - حين أراد أبو جهل أن يرميه بحجر ، فرجع عنه فزعاً مرعوباً ، والثالث : أن ذلك حقيقة في حالهم في جهنم ، والأول أظهر وأرجح لقوله قبلها { فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ } وقوله بعدها { وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤمِنُونَ }{فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ} [1] .

فالشاعر كما نرى اقتبس حديثه عن تلك الأغلال واستمده من هذه الآية الكريمة التي اشتملت على صورة بيانية أفاد الشاعر منها وأحسن توظيفها خدمة ووفاء للمقام .

ويمضى الشاعر فيذكر خطاب الله تعالى لجهنم وقد وعدها أنه سيملؤها من الجِنَّة والناس أجمعين.

يَوْمَ يُدْعَى هَلْ امتلأتِ وتَدْعو رَبِّ زِدْنِي من طُعْمَةِ الإنسان

ويكرر هذا الخطاب قبيل ختام همزيته الكبرى فيقول :

١) ينظر التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي الكلبي محمد سالم هاشم دار الكتب العلمية بيروت لبنان الأولى : ٢ / ٢٢١

يومَ أدْعُو هَل امْتَلأتِ وَتَدْعُو بزفيرٍ إلىَّ يَاْ أشْقِيَاءُ [1]

وهذا اقتباس من القرآن الكريم قال الله -تعالى- ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [2]

فالآية وردت في مقام التهديد والوعيد حيث يقول الحق لجهنم تقريعاً للكافرين : هل امتلأت ، وتقول جهنم غضباً عليهم : هل من زيادة أستزيد بها من هؤلاء الظالمين؟

واختلف في خطاب الله لجهنم وجوابها هل هما على الحقيقة أو لا ؟ فقال بعضهم هما على الحقيقة فينطقها الله بذلك كما ينطق الجوارح ، والله على كل شيء قدير فلا وجه للعدول إلى المجاز ، وقال بعضهم سؤال وجواب جيء بهما على منهاج التمثيل والتخييل لتهويل أمرها ولمعنى أنها مع اتساعها وتباعد أقطارها تطرح فيها من الجنة والناس فوجا بعد فوج حتى تمتلئ أو أنها من السعة بحيث يدخلها من يدخلها وفيها بعد محل فارغ أو إنها لغيظها على العصاة تطلب زيادتهم [3] .

وسواء أكان السؤال والجواب على سبيل الحقيقة أو المجاز فقد نقل الشاعر هذا الحوار واقتبسه من الآية الكريمة وصاغه صياغة شعرية متصرفا في جواب جهنم و رغبتها في الزيادة والاستكثار من الداخلين فيها .

---

١) الديوان :١٠٢ (زفر) الزَّفْرُ والزَّفِيرُ أن يملأ الرجل صدره غمًّا ثم هو يَزْفِرُ به لسان العرب : زفر

٢) ق: ٣٠، ٣١

٣) ينظر تفسير أبي السعود : ٨ / ١٣٢

وإذا كان الشاعر في هذا الموطن قد تصرف في الاقتباس حيث استبدل استفهام جهنم بطلب صريح (رَبِّ زِدْنِي من طُعْمَةِ الإنسان) ففي موطن آخر ضمن شعره هذا الخطاب الرباني مقتبسا من الآية الكريمة السؤال والجواب دون تدخل منه في حرف : فبعد استعراضه لما دار بين الحق جل وعلا و إبليس عليه لعنة الله تطرق للحديث عن جهنم وما أعد فيها من عذاب أليم فقال:

سَوْفَ تَبْقَى كمَا تَمَنَّيْتَ حَتَّى ... يَوْمِ فُصْلٍ ما بَيْنَ إنْسٍ وَجَانِ

يومَ عَرضِي لِمَنْ خلقْتُ وَلَمَّا ... لمْ يُبَدَّلْ ما أخْرَجَتْ شَفَتَانِ

وَادْعُ إبليسُ ما استطعتَ وَغَرِّرْ ... مَنْ أطاعَتْكَ نَفْسُه بالأمَانِي

هَا سَعِيْري وَزَمْهَرِيْري يدعو ... لعذابِ الحريق مَنْ قد عَصَانِي

يومَ أدْعُو هَل امْتَلأتِ وغيظاً ... تَتَبدَّى في ثورةِ الغَضْبَانِ

وتُنادِى غَضْبَاءَ هل مِنْ مَزِيْدٍ ... كَيْفَ تَنْسى وَقُودُها نِيْرَانِي[1]

فعلى نهج القرآن فى استنطاق الجماد الذي لا ينطق، ومخاطبته كأنَّه ناطق يتكلّم سار الشاعر فإذا به يضمن بيتيه الأخيرين قول الله تعالى : ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾[2] متصرفا في الاقتباس مضيفا إلى الحوار ما يحافظ على وزن قصيدته وما يعد تفسيرا لما أجمله النظم الكريم وتوضيحا لما أوجزه .

---

١) الديوان : ٧١
٢) ق: ٣٠

كما تناول الشاعر متأثرا بالقرآن الكريم ومقتبسا منه حال الكافرين وكيفية سوقهم إلى نار جهنم مبينا ما أعِدَّ لهم من عذاب مقيم و شدائد وأهوال :

ثمَّ سِيقَ الكُفَّارُ نحْوَ جَحِيمٍ يستغيثُونَ حَيْثُ حلَّ البلاءُ

ووقودُ السعير زادَ اشتِعَالاً واستَشَاطت مِنْ غَيْظِهَا الرَّمْضَاءُ

ثُمَّ هاجَتْ دارُ الجَحِيمِ وَمَاجَتْ تَقْذِفُ الرُّعْبَ والقُلُوبُ هواءُ

في زفيرٍ كالرعدِ تَنْدكُ منه هامَةُ الشُّمِّ والذُّرا الشَّمْخَاءُ

وشهيقٍ ينقضُّ من كلِّ فجٍ رجَّعتْه من هولِه الأرجاءُ

شَرَرَاً كالجِمَالةِ الصُّفْرِ تَرْمِي مِثْلُه القَصْرُ بئْسَ ذاكَ التَّوَاءُ (١)

تلك نارُ الشَّوَى التي في لَظَاها يُسْحبُ المُجْرِمُونَ والأشْقِياءُ(٢)

فقد بدأ الشاعر حديثه عن أهل الشقاوة باقتباس قرآني قال تعالى : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ ﴾(٣) واصفاً آلامهم مبيناً شدة كربهم وغمهم، مضمنا كلامه قول الله تعالى :﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ (٤) تاركا لخياله العنان فى رسم صورة بيانية يزيد بها من هول ما يلاقونه فالزفير

١) التَّوَى مقصور الهلاك وفي الصحاح هلاك المال والتَّوَى ذهاب مال لا يُرْجى وأتْواه غيرهُ تَوِيَ المال بالكسر يَتْوَى تَوىً فهو تَوٍ ذهب لسان العرب : توا

٢) الديوان : ٨١

٣) الزمر: ٧١

٤) هود: ١٠٦

كالرعد تندك منه هامه الشم والذرا الشمخاء والشهيق كأنه وحش ينقض من كل فج رجعته من هوله الأرجاء

واصفا الشرر المتَطايَر مِنَ النَّار زيادة في الترويع والتهويل بما وصفه القرآن قال الله تعالى : ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (١)

فالآيات تتحدث عن نار جهنم وأنها تقذف قاطنيها بشرر كالقصر فى عظمه ضخامته و بالجمال الصفر في هيئتها ولونها وسرعة حركتها وتزاحمها .

واختير اللون الأصفر للجمال ، لأن شرر النار عندما يشتد اشتعالها يكون مائلا إلى الصفرة .وقيل المراد بالصفر هنا : السواد ، لأن سواد الإبل يضرب إلى الصفرة .

وقيل : الضمير في « إنه » يعود إلى القصر ، فيذهب به إلى تصوير عجيب وتطوير غريب . شبهت الشرارة حين تنقض من النار في العظم بالقصر ، ثم شبّه القصر المشبّه به ، حين يأخذ في الارتفاع والانبساط بأن ينشق عن أعداد لا نهاية لها بالجمالات المتكاثرة ، فيتصوّر فيها حينئذٍ

١) المرسلات: ٣٢ ــ ٣٤

العِظَم أولاً ، والانشقاق مع الكثرة والصُفرة والحركة ثانياً ، فيبلغ بالتشبيه إلى الذروة العليا) [١] .

فالشاعر كما نرى قد اقتبس هذا التشبيه من القرآن الكريم وتصرف فيه بتعريف أحد المشبه بهما وهو الجمالة الصفر .

ثم يتابع الشاعر حديثه عن جهنم واصفاً حراسها :

إنَّ حُرَّاسَها غِلاظٌ شِدَادٌ يَتَفَانَونَ طاعةً أقوياءُ[٢]

وهو فى وصفه هذا معتمد على القرآن الكريم مقتبس منه قال الله تعالى : ﴿ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [٣]

والآية الكريمة تصف زبانية جهنم مبينة مقدار طاعتهم لربهم وعدم عصيانهم لأوامره بما يعرف لدى البلاغيين بالطرد والعكس[٤] . فجملة: {لاَّ يَعْصُونَ اللهَّ مَا أَمَرَهُمْ} تفيدُ بمنطوقها نفي المعصية عنهم ، وتفيد بمفهومها إثبات الطاعة لهم ، و جملة: {وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} تُفيدُ بمنطوقها إثبات الطاعة لهم ، وَتفيد بمفهومها نفْيَ المعصية عنهم .

و قد اقتبس الشاعر من النظم القرآني وصفين لزبانية جهنم :(غِلاَظٌ شِدَادٌ) دون تغيير فى اللفظ القرآني وأما وصفهم بالطاعة وعدم العصيان

---

١) البحر المديد أحمد بن عجيبة الحسني الإدريسي دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الثانية ١٤٢٣ هـ٢٠٠٢م : ٨ / ٢١٠

٢) الديوان : ٨١

٣) التحريم: ٦

٤) وهو أن يؤتى بكلامين يقرر الأول بمنطوقه مفهوم الثاني وبالعكس : الإتقان في علوم القرآن : ٢ / ٢٦٠

فقد سلك الشاعر طريقا آخر فوصفهم بالتفاني فى الطاعة مشيرا بصيغة المستقبل (يتفانون) إلى التجدُّد كناية عن استمرارهم فى الطاعة حالا واستقبالا وأن هذا شأنهم لا ينفك عنهم .

ويتابع الشاعر حديثه عما ما أعد للعصاة من عذاب فى جهنم فيقول :

سَارياتُ اللَّهيبِ تَنْسَابُ منها وبريح السَّمُومِ يَجْرى الهواءُ

مِنْ حَمِيْمٍ تَفِيْضُ فيها عُيُونٌ وَبِمَاءٍ كَالمُهْلِ يَجْرِى السِّقاءُ

إنَّ هَذَا شَرَابُ كلِّ أثيمٍ منه تُشْوَى الوُجُوهُ والأمعَاءُ

وَطَعَامٌ ذُوْ غُصَّةٍ وَعَذَابٌ مِنْه تُكْوَى الجِبَاهُ والأحْشَاءُ[1]

فالشاعر يصف شراب أهل الجحيم و طعامهم معتمدا على القرآن الكريم ومقتبسا منه قال الله تعالى :﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [2]

وقال أيضا :﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ ﴾[3]

فالآية الأولى تتحدث عما أعد للظالمين من عذاب الجحيم والحميم فإذا استغاثوا من حر الحريق والظمأ يُغَاثُونَ بمَاءٍ شَدِيدِ الحَرَارَةِ صار من شِدَّةِ حَرِّهِ كالمهل يشوى وجوههم قال ابن عباس : المهل الماء الغليظ مثل

١) الديوان : ٨٢
٢) الكهف: ٢٩
٣) المزمل: ١٢ - ١٣

دردي الزيت وقال مجاهد: هو كالدم والقيح ، وقال عكرمة: هو الشئ الذي انتهى حره ، وقال آخرون: هو كل شئ أذيب ، وقال الضحاك: ماء جهنم أسود، وهي سوداء وأهلها سود ، وهذه الأقوال ليس شيء منها ينفي الآخر؛ فإن المهل يجمع هذه الأوصاف الرذيلة كلها : فهو أسود منتن غليظ حار)[1]

وإنما اختص { الوجوه } لكونها عند شربهم يقرب حرّها من وجوههم. وقيل : عبر بالوجوه عن جميع أبدانهم[2] على سبيل المجار لعلاقة الجزئية لإطلاق البعض وهو { الوجوه } وإرادة الكل

أما الآية الثانية فتتحدث عما توعد الله به المكذبين من قيودٍ ثقيلةٍ ونارٍ مستعرةٍ يُحرقون بها، وطعامٍ كريهٍ لا يستساغ، لمرارته ،وكراهة طعمه وخبث ريحه .

فالشاعر كما نرى اقتبس من القرآن الكريم تشبيه شراب أهل الجحيم مضيفا إليه صورة بيانية : (يجرى السِّقاءُ)أقام بها الوزن، وأتم بها المعنى مبينا أثره على وجوههم ، مضيفا إليها أمعاءهم .

كما اقتبس الشاعر وصف طعامهم من القرآن الكريم فهو طعام ذو غصة ينشب في الحلق فلا يدخل ولا يخرج ،كما قال ابن عباس [3] .

ويمضى الشاعر فى حديثه واصفا ما أعد للعصاة من عذاب وما ينتظرهم من ويلات :

---

١) تفسير ابن كثير : ٥/ ١٥٥
٢) ينظر تفسير البحر المحيط : ٦/ ١١٦
٣) ينظر تفسير ابن كثير: ٨/ ٢٥٦

إنَّ فيها العذابَ من كلِّ نَوْعٍ وَعَلَيْها المَلائِكُ الرقباءُ

قد أطاعوا الرحمنَ في كُلِّ أمرٍ وبأمر العزيز يَجْرى القضَاءُ

دركاتٌ سبعٌ طباقٌ عذابٌ لا ظليلٌ بها يُحِيْطُ القضاءُ

كلُّ مَنْ في العَذابِ يَسْتَصْرِخُ الموتَ وهيهاتَ يُسْتجابُ النداءُ

وهباءً يضيعُ كلُّ تمنٍ حيثُ حلَّ الخلودُ زالَ الفَناءُ

لا مماتٌ بها يُهَوِّنُ كَرْباً أو عَذابٌ مخفَّفٌ أو رَجَاءُ

كلما أنضجَ الحريقُ جُلُوداً بدَّلَ اللهُ غَيْرَها ما يَشَاءُ

إنَّ هذا جزاءُ ما قدْ صنعتُم وعلى العَدْلِ قامَ هذا الجَزَاءُ[1]

فالشاعر كما نرى اعتمد على القرآن الكريم بل واقتبس منه فقوله : (كلما أنضج الحريق جلودا بدل الله غيرها ما يشاء) اقتباس من قول الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴾ [2]

فالآية الكريمة توعدت الكافرين بعذاب سرمدي دائم لا ينقطع أبداً ،أفصحت عنه بالجملة الشرطية المستهلة ب(كُلَّمَا) التي تقتضي التكرار بتكرر الفعل الذي بعدها[3] وإيثار(النضج) و إضافة الجلود إليهم وإسناد

---

١)الديوان : ٨٢

٢)النساء: ٥٦

٣)(كُلَّمَا) أداة ظرفية مركبة من (كل) التي تفيد الاستغراق و(ما) المصدرية الظرفية تشبه أدوات الشرط لما فيها من العموم المستفاد من (ما) المصدرية الظرفية و

التبديل لضمير العظمة وتنكير (جلودا) وذكر علة التبديل: {لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ}واستعارة الذوق للإحساس كل ذلك زيادة في ترهيبهم وتجديد حزنهم ؛ إذ كُلَّمَا نضج جلدهم وتهري وتلاشى جيء بجلد آخر مكانه ليتجدد ألمهم ويزداد عذابهم ، وَإِنَّمَا تَتَبَدَّلُ جلودهم لأَنَّ النُّضْجَ يُذْهِبُ الْقُوَّةَ الْحَيَوِيَّةَ الَّتِي بِهَا الإِحْسَاسُ ، فَإِذَا بَقِيَتْ نَاضِجَةً يَقِلُّ الإِحْسَاسُ بِمَا يَمَسُّهَا أَوْ يَزُولُ ؛ لِذَلِكَ تَتَبَدَّلُ بِهَا جُلُودًا حَيَّةً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ لأَنَّ الذَّوْقَ وَالإِحْسَاسَ يَصِلُ إِلَى النَّفْسِ بِوَاسِطَةِ الْحَيَاةِ فِي الْجِلْدِ)[1] .

وقد كان القرن الكريم سباقا في الإشارة إلى هذه الحقيقة العلمية والتي أثبتها و توصل إليها علماء التشريح في القرن العشرين : حيث اثبتوا أن مراكز الإحساس بالألم وغيره إنما تتركز في طبقات الجلد الخارجية بشكل أساسي دون بقية الجسد ، و قد اقتبس الشاعر قوله : (كلما أنضجَ الحريقُ جُلُوداً بدَّلَ اللهُ غَيْرَها ما يَشَاءُ) من الآية الكريمة وأفاد قدر استطاعته مما اشتمل عليه النظم الكريم من نكات بلاغية وفاء بحق مقام التهديد والوعيد .

وكَمَا اقتبس الشاعر حديثه عن الأشقياء وما أعد لهم من ألوان العذاب من القرآن الكريم ها هو ذا استنادا على القرآن الكريم واقتباسا منه بَيَّنَ حَالَ السُّعَدَاءِ الأَبْرَار وَمَا يَنَالُونَهُ مِنْ فَوْزٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ فِي جَنَّاتِ النَّعِيم .

لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أُعِدَّتْ قصورٌ عَالياتٌ في خَالِدَاتِ الجِنَان

الاستغراق المستفاد من (كل) ينظر معجم حروف المعاني في القرآن الكريم محمد حسن الشريف الطبعة الأولى ١٩٩٦م ص ٨٠٦

١) تفسير المنار محمد رشيد بن علي رضا مطبعة المنار الطبعة الثانية : ٥/ ١٦٤

والفَرَادِيْسُ زُيِّنَتْ ببدورِ كاللآلي ما بَيْنَ حُورٍ حِسَان

وبدار النعيم صُفتْ بيوتٌ من كَريمِ الياقوتِ والمرجانِ

غُرَفٌ تَحْتَ زهرها الماءُ يَجْرِى من نُضَارٍ ومن نَعِيْمِ الجُمَان

تَتَجَلَى على الأرائكِ فيها حورُ عينٍ من كاعباتٍ قِيَانِ

وَعَلَيْهِنَّ طافَ ولْدَانُ خلدٍ بشرابِ الأعنابِ والرمان

في أبَاريقَ مِنْ لُجَيْنٍ شَذَاها عَرْفُ مسكٍ ونفحةُ الرَّيْحَانِ

إنَّ فيها ما تَشْتَهِى كلُ نفسٍ وَجَنَاهَا أيَّانَ تدعون دانِ (١)

فالشاعر يتحدث عما أعد لأهل الجنة من ألوان المتع و مظاهر النعيم المقيم

من مجالس فاخرة ، و أنهار جارية ، وظلال وارفة ، وحور عِين ،

و كما نرى فقد استوحى الشاعر أوصافه لنعيم أهل الجنة واقتبسها من القرآن الكريم قال الله تعالى :

﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (٢) ﴿ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ

١) الديوان : ٣٣
٢) آل عمران : ١٥

ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ (١)

﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾ (٢)

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ (٣)

﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ (٤)

فالآيات الكريمة وغيرها الكثير قد صور ت ما أعده الله -تعالى- للسُّعَدَاءِ الأبْرَار فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ اقتبسها الشاعر و جمع بين ما تحمل من مظاهر الترف وألوان المتع ، وصاغها صياغة شعرية متأثرا بلغة القرآن و مستفيدا بما تحمل من نكات بلاغية ، أحسن توظيفها .

وقبيل ختام نونيته الكبرى تطرق الشاعر للحديث عن يوم الفصل حيث يجازى كل بما قدم مسترسلا في وصف نعيم أهل الجنة فيقول :

كُلُّ نَفْسٍ تَخْشَى الإلَهَ سَتَمْشِي يَوْمَ هَوْلِ الخُرُوْجِ في اطْمِئْنَان

لَقِيَتْها الدُّنْيَا قريرَةَ عَينٍ وبِخُلْدِ الأُخْرى لها جَنَّتَان

---

١) الإنسان: ١٣ - ١٩
٢) الواقعة: ١٧ - ١٨
٣) فصلت : ٣١
٤) الرحمن: ٥٤

حَلَّقَ الرُّعْبُ والمليكُ يُنَادِى ها وَعِيْدِي والوَيْلُ مِنْ سُلْطَانِي

يا عُصَاةَ الرَّحْمَنِ حَلَّ بَلائِي كَيْفَ يَنْجُو مِنْ نِقْمَتِي مَنْ عَصَانِي؟

ما جُنُودُ الشَّيطانِ إلا غُواةٌ أبْعدُوكم عَنْ طَاعَتِي وَحَنَانِي

لا فِداءٌ ولا شفيعٌ يُرجَّى إنَّه الفَصْلُ أيُّها الثَّقَلانِ

واقْتِدَاري وعِزَّتي وجَلالي سَوفَ يُجْزَى المسيءُ بالحِرْمَان

إنَّ عَفْوي يَنَالُه كُلُّ عَبْدٍ كانَ يَخْشَى بَطْشِي ولا يَنْسَانِي

أيُّها المُحْسِنُونَ هذا نعِيمي قد وُعِدْتُم به وَدًا غُفْرَانِي

فَهَلُمُّوا إلى فراديس خُلْدٍ في قُصورٍ أعدَّها رِضْوَانِي

<u>وسلامٌ لكم بما صَدَقْتُم</u> وَصَبَرْتُم على كُرُوبِ الزَّمَان

إنَّ هذا وَعدِى وقدْ تَمَّ وَعْدِى <u>وَجَزَاءُ الإحْسَانِ بالإحْسَانِ</u> (١)

و الشاعر كما رأينا يختم حديثه عن ألوان النعيم المعد للمتقين في دار الكرامة بإلقاء التحية والإكرام : (وسلامٌ لكم بما صَدَقْتُم وَصَبَرْتُم على كُرُوبِ الزَّمَان) وهو في ذلك مقتبس من القرآن الكريم تحية الملائكة لأهل النعيم المقيم : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴾(٢) فتصرف في الاقتباس بتغيير حرف الجر ، وزيادة الفعل (صدقتم)

---

١) الديوان : ٦٩
٢) الرعد: ٢٤

وفى البيت التالي يأتي قوله : (وَجَزَاءُ الإحْسَانِ بالإحْسَانِ) مقتبسا من قول الله تعالى : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾[1] إلا أن الشاعر حول صيغة الاستفهام وهو استفهام مجازى يراد به النفي إلى التقرير : (وَجَزَاءُ الإحْسَانِ بالإحْسَانِ)

****

١) الرحمن: ٦٠

الخاتمة وأهم النتائج

وبعد ،

فهذه دراسة بلاغية متأنية ، و تحليل دقيق لإحدى الظواهر الأسلوبية المهمة التي عبرت عن ثقافة الشاعر إسماعيل صبري أبو أميمة ، وإلمامِه بدقائق اللغة العربية وآدابها ، وتمكنه من تراثه الديني والأدبي ، و تأثره بكثير من الصياغات القرآنية ، حاولت من خلالها الكشف عن جمال الاقتباس ، و بلاغته، و علاقته بالسياق ، مبينا كيف يندمج بيانُ القرآن في لغة الشعر -اقتباسا وتضمينا- ليزيد المعاني عمقا ، والبيان سحرا خدمة للسياق و وفاء بالغرض الذي جيء من أجله ، مؤكدا على أن الاقتباس لون بلاغي دقيق المسلك ينطوي علي كثير من الإشارات الفنية الدقيقة ، تتعانق مع اللطائف البلاغية الأخرى لتمنح النص قوة وعمقا ، وروحانية وقداسة ، ينعكس تأثيرها في إثراء الذوق الأدبي والبلاغي ، لا سميا وأن الشاعر كان موفقاً لدرجة كبيرة في صياغته الشعرية، ومتمكنا من اقتناصه للكثير من الآيات القرآنية ، مستثمرا إمكاناتها الدلالية كاشفا عن ملكته البيانية، مفصحا عن براعته في حسن اختيار النص القرآني المناسب لغرضه ، مظهرا مهارته في إحكام الصلة بين كلامه والكلام الذي أخذه، موظفا الأساليب القرآنية تحقيقا لمراده مما كان له عظيم الأثر في رقة ألفاظه وسلاسة عباراته وعمق معانيه ، ومنح شعره قيمة أدبية ، ومتعة فنية ترتفع به إلى منزلة مرموقة ، وتجعله أكثر تأثيرا في النفوس والقلوب....؛

وختاما فالكمال لله وحده ، والله اسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، ربنا لا تأخذنا إن نسينا أو أخطانا ، والحمد لله أولا و آخرا ،،،

د حسن الشريف

أهم المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١- الإتقان في علوم القرآن جلال الدين عبد الرحمن السيوطي تحقيق سعيد المندوب دار الفكر لبنان ١٤١٦هـ ١٩٩٦م .

٢- إعجاز القرآن محمد خلف الله أحمد ، محمد زغلول سلام دار العارف ، الطبعة الثالثة .

٣- الإعجاز اللغوي والبياني في القرآن الكريم جمع وإعداد علي بن نايف الشحود .

٤- الاقتباس أنواعه وأحكامه دراسة شرعية بلاغية في الاقتباس من القرآن والحديث عبد المحسن عبد العزيز العسكر مكتبة دار المنهاج الرياض الطبعة الأولى .

٥- الاقتباس والتضمين في شعر ابن درَّاج القسطلى بحث تكميلي لنيل درجة الماجستير في البلاغة والنقد هناء فلحان القرشي جامعة أم القرى

٦- الاقتباس من القرآن الكريم في الشعر العربي عبد الهادي الفكيكى منشورات دار النمير سوريا دمشق الطبعة الأولى ١٩٩٦م

٧- الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع الخطيب القزويني دار الكتب العلمية بيروت لبنان .

٨- البحر المديد أحمد بن عجيبة الحسني الإدريسي دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الثانية ١٤٢٣ هـ٢٠٠٢م .

٩- البرهان في علوم القرآن محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي دار المعرفة - بيروت ، ١٣٩١تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم .

١٠- بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز الفيروزابادى تحقيق محمد على النجار دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٣.

١١- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب الطبعة السابعة عشر: ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م .

١٢- البلاغة العالية علم المعاني عبد المتعال الصعيدي قدم له د عبد القادر حسين مكتبة الآداب الطبعة الثانية .

١٣- البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها عبد الرحمن حبنكة الميدانى دار القلم دمشق الطبعة الأولى ١٩٩٦م

١٤- التحرير والتنوير الطاهر بن عاشور الطبعة التونسية دار سحنون للنشر والتوزيع تونس ١٩٩٧م .

١٥- التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي الكلبي محمد سالم هاشم دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الأولى .

١٦- تفسير أبي السعود إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم محمد بن محمد العمادي أبو السعود دار إحياء التراث العربي - بيروت .

١٧- تفسير البحر المحيط لأبي حيان دار الكتب العلمية لبنان بيروت - ١٤٢٢ هـ٢٠٠١م الطبعة : الأولى تحقيق :عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض .

١٨- تفسير البغوي معالم التنزيل أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة : الرابعة ، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م .

١٩- تفسير حقي موقع التفاسير .

٢٠- تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن دار الفكر بيروت لبنان .

٢١- تفسير السعدي تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي مؤسسة الرسالة الطبعة : الأولى

٢٢- تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آى القرآن محمد بن جرير الطبري دار الفكر بيروت .

٢٣- تفسير القرآن العظيم أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير سامي بن محمد سلامة دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة : الثانية - ١٩٩٩م .

٢٤- تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن محمد بن أحمد القرطبي تحقيق : أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش دار الكتب المصرية – القاهرة الطبعة : الثانية ، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م .

٢٥- تفسير الماوردي النكت والعيون أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري دار الكتب العلمية بيروت لبنان تحقيق : السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم .

٢٦- تفسير المنار محمد رشيد بن علي رضا مطبعة المنار الطبعة الثانية .

٢٧- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج د وهبة بن مصطفى الزحيلي دار الفكر المعاصر دمشق الطبعة الثانية ، ١٤١٨ هـ

٢٨- التفسير الوسيط محمد سيد طنطاوي موقع التفاسير .

٢٩- التوقيف على مهمات التعاريف محمد عبد الرءوف المناوي دار الفكر المعاصر ، دار الفكر بيروت ، دمشق الطبعة الأولى ، ١٤١٠ تحقيق : د. محمد رضوان الداية .

٣٠- خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني د محمد أبو موسى مكتبة وهبة الطبعة الرابعة ١٩٩٦م .

٣١- ديوان إسماعيل صبري أبو أميمه محمد القصاص ، عامر محمد بحيرى ،أحمد كمال زكى دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان .

٣٢- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني محمود الألوسي أبو الفضل دار إحياء التراث العربي – بيروت .

٣٣- زهرة التفاسير الإمام محمد أبو زهرة : دار الفكر العربي .

٣٤- شروح التلخيص ، دار السرور ، بيروت ، لبنان .

٣٥- صحيح البخاري الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه دار ابن كثير ، اليمامة - بيروت - ١٤٠٧ - ١٩٨٧، الطبعة: الثالثة، تحقيق: د مصطفى ديب البغا

٣٦- صفوة التفاسير محمد علي الصابوني دار القرآن الكريم بيروت الطبعة الرابعة .

٣٧- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير محمد بن علي بن محمد الشوكاني دار الفكر – بيروت .

٣٨- القاموس المحيط محمد بن يعقوب الفيروزبادي مؤسسة الرسالة بيروت

٣٩- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل الزمخشري دار إحياء التراث العربي بيروت عبد الرزاق المهدي .

٤٠- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية ، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي تحقيق: عدنان درويش - محمد المصري مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة الثانية ١٤١٩هـ ١٩٩٨م .

٤١- كنوز الإعجاز العلمي في القرآن الكريم عبد الدائم الكحيل .

٤٢- لسان العرب ابن منظور دار صادر بيروت الطبعة الأولى .

٤٣- المحيط في اللغة الصاحب بن عباد عالم الكتب - بيروت / لبنان - ١٤١٤هـ -١٩٩٤م الطبعة : الأولى الشيخ محمد حسن آل ياسين .

٤٤- مختار الصحاح محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي مكتبة لبنان ناشرون بيروت محمود خاطر .

٤٥- المصباح المنير أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقري دراسة و تحقيق يوسف الشيخ محمد المكتبة العصرية .

٤٦- معجم حروف المعاني في القرآن الكريم محمد حسن الشريف الطبعة الأولى ١٩٩٦م .

٤٧- المعجم الكبير للطبراني مكتبة العلوم والحكم ، الموصل الطبعة الثانية ، ١٩٨٣م تحقيق : حمدي بن عبد المجيد السلفي .

٤٨- مفاتيح الغيب فخر الدين الرازي دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة : الأولى ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

٤٩- نظم الدرر نظم الدرر في تناسب الآيات والسور برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م تحقيق : عبد الرزاق غالب المهدي .

٥٠- النكت في إعجاز القرآن لأبى الحسن على بن عيسى الرماني ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن محمد خلف الله أحمد ، محمد زغلول سلام دار العارف ، الطبعة الثالثة .